



قَلَادَةُ الْكَتَابِ

مُخْتَارَاتٌ شِعْرِيَّةٌ مِنَ الْعُصُورِ الْأُولَى
مَعَ تَعَالِيقٍ تَكْشِفُ مَعَانِيَهَا وَتُضِيءُ مَعْمَيَاتِهَا



د. سُلَيْمَانُ بْنُ نَاصِرِ الْعَبُودِيِّ — عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَمُودِيِّ

قِلَادَةُ الْإِسْلَامِ

حقوق الطبع محفوظة

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي، سليمان بن ناصر

قلادة الأديب. / العبودي، سليمان بن ناصر، العمودي عثمان
بن عبد الله - ، الرياض، ١٤٤٤هـ.

١٩٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٦٦٠-٩-٢

أ. العمودي، عثمان بن عبد الله (مؤلف مشترك)

ب. العنوان

١٤٤٤ / ٩١

ديوي ٨، ٨١٠

رقم الإيداع: ١٤٤٤ / ٩١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٦٦٠-٩-٢

الطبعة الثانية

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

قَلَادَةُ الْإِسْلَامِ

مُخْتَارَاتُ شِعْرِيَّةٍ مِنَ الْعُصُورِ الْأُولَى
مَعَ تَعَالِيقٍ تَكْشِفُ مَعَانِيَهَا وَتُضِيءُ مُعَمِّيَاتَهَا

د. سُلَيْمَانُ بْنُ نَاصِرِ الْعَبُودِيِّ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَمُودِيِّ



تمهيد

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أما بعد

فإن الاطلاع على شعر العرب القدماء، والإحاطة بأبياتهم السائرة، والتضلع من مادتهم اللغوية في التعبير والمخاطبة هي الجادة الأقصر والوسيلة الأشهر - بعد معرفة الوحيين - لكل من أراد أن يكون له الحظ الأوفى والقدح المعلى من القدرة على البيان عن ما يختلج بنفسه من مشاعر، وما يضطرم في روحه من أفكار، وما يعتمل في عقله من معارف، ولهذا المقصد الشريف وغيره جرت عادة أهل العلم قديما وحديثا على حفظ بعض المنتخبات الشعرية، ما بين مقل من ذلك ومكثر، فقد صحح الأصمعي شعر هذيل على الإمام الشافعي رحمهما الله، وحفظ الطبري ديوان الطرمّاح بن حكيم، وروى ابن عبد البر شعر أبي العتاهية، إدراكا تاما من هؤلاء الأئمة وغيرهم أنك إن حنيت رقبتك للغة عاما، فإنها ستخدمك دهرا، ووعيا كاملا منهم أن للغوص في معرفة أساليب العرب أبلغ الأثر على الإنسان في مدّ رواق سلطته في التفكير والنظر العقلي، وقد روى ابن أبي حاتم في كتابه آداب الشافعي ومناقبه بسنده عن الشافعي قال: (أصحاب العربية جن الإنس، يبصرون ما لا يبصر غيرهم)^(١).

وكأنّ الشافعيّ باتساعه اللغوي المعروف يروي في هذا النص تجربته الشخصية التي ورثها عن علم اللغة، ورأى أن تبحره اللغوي نمت عنده ملكة النظر

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١١٢).

والاستنباط، ورفع مستوى الأداء العقلي في التفكير إلى الغاية، فجاءت شهادته لأهل اللغة ومقدرتهم على إِبصار ما لا يبصره سواهم من هذه الجهة. وقد توارد على هذا المعنى وما يقاربه عدد من العلماء السابقين، فيقول ابن المقفع: (بالأدب تنمى العقول وتزكو)^(١)، ويقول الفراء: (قلّ رجل أنعم النظر في العربية وأراد علماً غيره إلا سهل عليه)^(٢)، ويقول ابن تيمية: (اعتیاد اللغة يؤثر في العقل)^(٣)، وقال ابن خلدون واصفاً حال بعضهم بأنه: (سبقت له عجمة في لسانه، فربطت عن ذهنه)^(٤).

تفسير علاقة المخزون اللغوي بالتفكير:

كلمات العلماء في تأثير اللغة على العقل وعلى تحصيل المعرفة كثيرة، وبالإمكان أن نذكر علةً واحدة حول علاقة المخزون اللغوي بالتكوين المعرفي والفكري، وهو أن العقل البشري ينتج عمليات في غاية التعقيد ومنتهى التفاوت، وهذه العمليات العقلية الهائلة لا تشعر بها الحواس، وإنما يكشف عنها البيان، والألفاظ هي الثوب الذي تلبسه المعاني، فإذا اتسع الثوب استطاع أن يغطي قدراً واسعاً من المعاني، وإذا ضاق ظلّت المعاني محبوسة في زوايا الذهن لا تجد من يخرجها من كُناسِها، أو حتى من يسمع وَقَعَ أنفاسِها، وهذا مندرج في كلمة عبد القاهر الجرجاني حين قال: (فإنه لن تتسع المعاني حتى تتسع الألفاظ)^(٥)، فالبيان اللغوي هو إبانة عن خلجات النفس وكشف عن مخبآت الصدر واقتناص لشوارد المعاني، والعرب - كما يقول الشاطبي - (إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها)^(٦)، وهذا قدرٌ من

(١) الأدب الصغير (٢١).

(٢) معجم الأدباء (١٧/١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٢٧/١).

(٤) تاريخ ابن خلدون (١/٧٣٨).

(٥) دلائل الإعجاز (٦٠٨).

(٦) الموافقات (٢/١٣٨).

التفسير لعلَّ استبداد سلطان اللغة على التفكير، والأمر أعمق من ذلك وأدق، فإن اللغة نظام تفكير، وسلطة تفسير، ومِصْنَحَةُ إنتاج.

أثر معرفة القواعد في الأسلوب الأدبي:

يخيل لنا أن القارئ الكريم لم يصل إلى هذا الموضوع إلا وقد استقرت في ذهنه هذه المقدمة ضِمنًا، وهي أن التضلع من اللغة له أثر بالغ في البيان، وأصبحت مسلَّمةً بيني عليها ما بعدها، وها هنا يرد سؤال منطقي: ما المقصود بعلوم اللغة التي تؤثر أثرا مباشرا في البيان الإنساني؟ وما أثر القواعد في الأسلوب الأدبي؟ ولتقريب جواب هذا السؤال - مجرد تقريب - تأمل هذا المثال:

حين تريد أن تعبر عن لقاءك بصاحبك عيسى وهو راكب، فربما كتبتَ الجملة التالية:

(لَقِيتُ عيسا راكبًا).

فإذا تعلمتَ بعد ذلك النحو فقط، فربما كتبتَها هكذا:

(لَقِيتُ عيسا راكبا).

وإذا تعلمتَ بعد ذلك الصرف فقط، فربما كتبتَها هكذا:

(لَقِيتُ عيسا راكبا).

وإذا تعلمتَ الإملاء فستكون الجملة هكذا:

(لَقِيتُ عيسى راكبا).

لعلك تلاحظ أن الجملة تغيرت مرارا مع كل علم يضع طرف بنانه على شِباة قلمك، وأمست هذه الجملة القصيرة مع تعاضد العلوم مستويةً على سوقها، مسلَّمةً

لا شِيةَ فيها، فهي صلبة من جهة البناء الخارجي، وهذا هو ما تمنحه لنا في الجملة علوم القواعد على مهاراتنا التعبيرية، وهي منحة ليست هيئةً كما ترى، لكن علينا أيضا أن ندرك حدود تأثير هذه العلوم على الأسلوب، وأنه مهما بلغ من الأهمية إلا أن له حدودا لا يستطيع تجاوز أسوارها، فهذا المثال السالف قصد به تقريب صورة حدود التأثير.

أما هدم البناء اللغوي للجملة من أساسها، ثم افتراع جمل أخرى أكثر أناقة وجمالا، أو اختراع سياقات جديدة أرق صياغةً وبناءً، أو انتقاء طرائق مختلفة في التعبير والبيان عن المراد المضمّر في الضلوع، فهذا -مع شرط وجود الملكة- إرث القراءة الدقيقة في الأساليب العالية المودعة كتاب الله تعالى، والمشملة عليه البلاغة النبوية العظيمة، وهو أيضا نتيجة إدامة النظر في تركة الأقلام الفصيحة المقتدرة على النفاذ إلى بواطن المعاني.

هذه حقيقة ينبغي أن تكون حاضرة إذا رأيت من يرسم حدودا لملكة البيان لا تتجاوز معرفة قواعد الإعراب وما في بابها، وهذا ذكر لنصف الطريق، أما الاقتصار عليه فهو لا يوصل إلى المقصود بحال، وقد نبّه على هذا المعنى الدقيق العلامة النحوي أبو حيان الأندلسي -وبالغ في تقريره- فقال: (أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة.. وقل أن ترى نحويا بارعا في النظم والنثر، كما قل أن ترى بارعا في الفصاحة يتوغل في علم النحو)^(١).

وجاء في ترجمة أبي حامد الغزالي أنه مما كان (يُعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو في أثناء كلامه، وروجع فيه، فأُنفص، واعترف أنه ما مارسه، واكتفى بما

(١) البحر المحيط (١/١٩).

كان يحتاج إليه في كلامه، مع أنه كان يؤلف الخطب، ويشرح الكتب بالعبارة التي يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها^(١).

فالنحو والصرف ونحوهما من علوم القواعد يقومان بمهمة ترسيم وضبط الحدود الخارجية لدولة الأسلوب، أما البنية التحتية والإدارة الداخلية لهذه الدولة فليست هي مهمة سيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني ونظرائهم، وإنما فَسَحَ هؤلاء النحاة الصدرَ لأصحابِ المعلّقات وأبي تمام والمتنبي والجاحظ وابن قتيبة والجرجاني ليتولوا مهمة إدارة هذه الدولة من الداخل!

قلادة الأديب:

وبعد.. فهذه مختارات شعرية من العصور الأولى مضمّنة شرحها والتعليق عليها، وهي مادّة انتخبناها للحفظ والاستشهاد، وعَلّقْنَا عليها بشرح مُقتضب يجلّي إشكال الأبيات ويحلُّ مُغلقاتها، ويضيء مُعمّياتها.

وإن أعظم المعارف أثرا على الإنسان وشحذا لموهبته واستقرارا في نفسه ما أخذه بصبرٍ طويلٍ وتأمّلٍ عميقٍ وإدامةٍ نظرٍ وتقليبٍ فِكْرٍ حتّى وإن كان قليلا، فإن بركته تربو مع كُرِّ الليالي ومَرِّ الأيام، وإن أقلّها أثرا على الإنسان ما أخذه مكائفة دون تدقيق، ومراكمة دون تحقيق؛ فإن أثره سريع الاضمحلال وشيك الزوال، وهذه قاعدةٌ صحيحةٌ في كل فنّ، فلا تنحصر في الأدب فَحَسْبَ.

وكان المنهج المسلوک في هذا الكتاب كما يلي:

- اشتمال المختارات الشعرية على المعاني اللطيفة الصالحة للاحتجاج أو الاستشهاد.

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٦/٢١١).

- عامة المختارات من الشعر القديم، إما من العصر الجاهلي خصوصا، أو العصر الأموي، أو العصر العباسي، لما لهذه العصور المتقدمة من فضل بيّن على أشعار العصور المتأخرة.
- عامة المختارات هي مما توارد على ذكرها بعض أئمة اللغة، أو وردت في بعض المجاميع اللغوية المشهورة.
- عدلنا في هذا الكتاب عن القصائد الطوال إلى القطع الشعرية القصيرة، دفعا للسأم، وتنشيطا للذاكرة، وتسهيلا للاستشهاد.
- شرحنا الأبيات بما يزيل عنها الغموض والالتباس، ويجعلها بيّنة جليّة لعامة الناس، دون استقصاء في التفسير، أو استفاضة في التعبير.
- كتبنا ترجمة موجزة لكل شاعر، نذكر فيها أهم ما يتعلق بحياته وأدبه.
- حرّصنا على ضبط الأبيات بالشكل، مع ذكر البحر العروضي لكل قطعة مختارة.

وقد قسمنا هذا الكتاب -بعد المقدمة- إلى فصلين:

الفصل الأول: المختارات الشعرية: وفيه الأبيات المختارة مرتبة مع ذكر قائلها وعنوان لكل قطعة.

الفصل الثاني: شرح المختارات الشعرية: وفيه شرح للأبيات المختارة، حسب ترتيبها في الفصل الأول، مع ذكر لبعض الفوائد والشواهد والمناسبات.

ونرجو أن تكون هذه المادة الأدبية -على وجاهزتها- لبنة نافعة لحافظها بالاحتجاج والاستشهاد والتذوق، دافعة للمتأمل في دقائق معانيها لأن يغذّ المسير في هذا الطريق الممتع، وأن تغدو نافذة مطلّة لمن أخذها بحق على الشعر العربي

القديم، فما قصدنا بهذا الجمع الأدبي إلا إشعال شموع في طريق تذوق كلام العرب، وضبط ألفاظه، وتقريب معانيه، وهو طريقٌ لا حِبَّ طويل ممتدٌّ^(١).
ونسأل الله تعالى أن يبارك في هذا الجمع الأدبي، وأن يجعله قنطرة صالحة لتعميق فهمنا لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

(١) أصل هذا الكتاب مبادرة أدبية على الشبكة الالكترونية، ثم رأينا إخراجه لِمَا شهدنا من إقبال لقيف من المهتمين بالأدب على حفظه واستشراحه وإنشاد مختاراته.

الفصل الأول

المختارات الشعرية

وهو منطلق

قال جُوَيْتَةُ بْنُ النَّضْرِ:

(بحر البسيط)

إِنَّا إِذَا اجْتَمَعْتُ يَوْمًا دَرَاهِمُنَا ظَلَلْتُ إِلَى طُرُقِ الْمَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ
لَا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ صُرَّتَنَا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ!



دَبِيبُ الْكُسَالَى

قال حَوْطُ بْنُ رِثَابِ الْأَسَدِيِّ:

(بحر البسيط)

دَبِيبَتْ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا جَهْدَ النَّفُوسِ وَأَلْقُوا دُونَهُ الْأُزْرَا
فَكَابِدُوا الْمَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبِرَا
لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا



صخرة الأسرار

قال مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

(بحر الطويل)

وَفَتَيَانِ صَدِيقٍ لَسْتُ مَطْلَعُ بَعْضِهِمْ عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أَنِّي جَمَاعُهَا
لِكُلِّ امْرَأَةٍ شِعْبٌ مِنَ الْقَلْبِ فَارِغٌ وَمَوْضِعُ نَجْوَى لَا يُرَامُ أَطْلَاعُهَا
يَظْلُمُونَ شَتَى فِي الْبِلَادِ، وَسِرُّهُمْ إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالِ انْصِدَاعُهَا

مقابر المحاسن

(بحر البسيط)

قال قَعْنَبُ بنِ ضَمْرَةَ:

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فَرَحًا مِنِّي، وما سمعوا من صالح دفنوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذُكِرْتُ به وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عندهم أَذِنُوا



فليتك تحلو

(بحر الطويل)

قال أبو فراس الحمداني:

إذا الخِلُّ لَمْ يَهْجُرَكَ إِلَّا مَلَالَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الفراق عتابُ
بِمَنْ يَثِقُ الإنسانُ فيما يَنُوبُهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الكَرِيمِ صِحَابُ؟
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقَلَّهُمْ ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ!
وما كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ
وَرَبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الهَجِيرِ ذُبَابُ!
فليتكَ تحلو والحياة مَرِيرَةٌ وليتك ترضى والأنام غَضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خَرَابُ



الغلو ذريعة الانتقاص

قال ابن الرومي: (بحر المتقارب)

إذا ما وَصَفْتَ امرأً لامرئاً فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ واقصِدِ
فإنَّكَ إن تَغْلُ تَغْلُ الظُّنَّ نُ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ
فَيَنْقُصُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ



شقاء المحب

قال أحدهم: (بحر الوافر)

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ
فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّنَائِي وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ



استسهال البدايات

قال العباس بن الأحنف: (بحر الكامل)

الْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لِحَاجَةٍ تَأْتِي بِهِ وَتَسْوِقُهُ الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ!

سباع بشرية

قال أبو الطيّب المتنبي:

إنما أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ يَفَارِسُنَ جَهْرَةً وَاغْتِيالا
مَنْ أَطاقَ التماسَ شيءٍ غَلابا وَاغْتِصابا، لم يَلْتَمِسْهُ سِوَالا!
كُلُّ غَادٍ لِحاجةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الغَضَنُفَرُ الرَّبُّبَالا



لذة السعي إلى الأمان

وقال:

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ رَبُّهُ وفي الهجرِ، فهو الدهرُ يَرجو وَيَتَّقِي
ولم أرَ كالألحاحِ يومَ رَحيلِهِم بَعَثَنَ بِكُلِّ القَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدْرَنَ عُيُونًا حائراتٍ كأنَّها مُرَكَّبَةٌ أحداقُها فوقَ زَبْقِ
عشيةً يَعدونا عَنِ النَّظَرِ البُكا وَعَنِ لَذَّةِ التَّوديعِ خوفَ التَّفَرِّقِ



استبداد الشعور

قال الطَّرْمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ:

متى مَا يَسْؤُ ظَنُّ امرئٍ بِصَدِيقِهِ وللظنِّ أسبابٌ عِراضُ المُسَارِحِ
يُصَدِّقُ أمورا لم يَجْنُهِ يَقِينُها عليه، ويعشقُ سَمْعُهُ كُلَّ كاشِحِ

قبول المعاذير

قال أحدهم:

(بحر البسيط)

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا إِنَّ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرًا
فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَغْصِيكَ مُسْتَرًا



حزازات النفوس

قال زفر بن الحارث الكلابي:

(بحر الطويل)

أَيَذْهَبَ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ بَلَائِيَا
وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دَمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيََا



ربما أفسد التماذي

قال أعرابي:

(بحر المديد)

مَا لِعَيْنِي كُحِلَتْ بِالشَّهَادِ وَلِجَنِّي نَائِيَا عَنْ وَسَادِي
لَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا مِثْلَ حَسْوِ الطَّيْرِ مَاءِ الثَّمَادِ
أَبْتَغِي إِصْلَاحَ سُعْدَى بِجُهِدِي وَهِيَ تَسْعَى جُهِدَهَا فِي فَسَادِي
فَتَتَارَكْنَا عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ رُبَّمَا أَفْسَدَ طَوْلُ التَّمَادِي

وَمَلَّتْ سُلَيْمَى

قال صخر بن الشريد:

(بحر الطويل)

أرى أُمَّ صَخْرٍ لَا تَمَلُّ عِيَادَتِي وَمَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي
فَأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بَأَمِّ حَلِيلَةٍ فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي أَذَى وَهَوَانِ
لَعَمْرِي لَقَدْ نَبَّهْتَ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتَ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
أَهْمٌ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْتَطِيعَهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعِيرِ وَالنَّزَوَانِ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جِنَازَةً عَلَيْكَ، وَمَنْ يَغْتَرُّ بِالْحَدَثَانِ!



الغياب الموجه

قال مُهْلَهُلُ بْنُ رَبِيعَةَ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ كَلِيبَ:

(بحر الكامل)

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبَسُوا



زفرةُ والد

قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ

(بحر الطويل):

غَذَوْتُكَ مَوْلودًا، وَعُلْتُكَ يَافِعَا	تَعْلُ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ، وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتَ	لِشَّكْوَاكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلَمَلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي	طَرِقتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ، وَإِنَّهَا	لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي	إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتَ فِيكَ أَوْمَلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاطَةً	كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضَّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَي	فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمَجَاوِرُ يَفْعَلُ



فضيلة التغافل

قال الشريف الرضي:

(بحر الطويل)

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمَحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ	أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا
تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا	وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا
وَلَوْ أَنَّنِي كَشَفْتَهُ عَنْ ضَمِيرِهِ	أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَاتِمًا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلِمَكَ إِلَّا قَطَعَتْهُ	عَلَى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلَا دَمًا

عند الشدائد تذهب الأحقاد

قال عوف القوافي: (بحر الكامل)
ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ، وَنَامَتِ الْعُودُ
لَمَّا أَتَانِي عَنْ عُيُنَةٍ أَنَّهُ أَمَسَتْ عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الْأَقْيَادُ
نَخَلْتُ لَهُ نَفْسِي النَّصِيحَةَ إِنَّهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَذْهَبُ الْأَحْقَادُ



رُقِيَّةُ الْحُبِّ

قالت أم الضحاك المحاربة: (بحر الطويل)
سَأَلْتُ الْمُحِبِّينَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا تَبَارِيحَ هَذَا الْحُبِّ مِنْ سَالَفِ الدَّهْرِ
فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا يُذْهَبُ الْحُبُّ بَعْدَمَا تَبَوَّأَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصُّدْرِ؟
فَقَالُوا: شِفَاءُ الْحُبِّ حُبُّ يَزِيلُهُ لِأَخْرَ، أَوْ نَائِي طَوِيلٌ عَلَى هَجْرِ
أَوْ الْيَأْسُ حَتَّى تَذْهَلَ النَّفْسُ بَعْدَمَا رَجَتْ طَمَعًا، وَالْيَأْسُ عَوْنٌ عَلَى الصَّبْرِ



إن الشجا يبعث الشجا

قَالَ مُتَّمُ بْنُ نُؤَيْرَةَ: (بحر الطويل)
لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
فَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالِدَكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ!



فَكَشَّفَهُ التَّمْحِصُ

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ: (بحر الطويل)
رَأَيْتُ فُضَيْلًا كَانَ شَيْئًا مُلَفَّقًا فَكَشَّفَهُ التَّمْحِصُ حَتَّى بَدَأَ لِيَا
أَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضْتَ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَا لِيَا!
كَلَّانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا



فكأنها أحلام

قال أبو تمام : (بحر الكامل)

ولقد أراك، فهل أراكِ بِغِبْطَةٍ والعيشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلامٌ؟!
أعوامَ وَضَلَّ كَادَ يُنْسِي طُولَهَا ذكُرُ النَّوَى، فكأنَّها أَيَّامُ
ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجَرٍ أَرْدَفَتْ بِجَوَى أَسَى، فكأنَّها أغوامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تلكَ السَّنُونَ وأهلُها فكأنَّها وكأنَّهم أحلامُ



حصاة السنين

قال أبو نواس : (بحر الكامل)

ولقد نهزتُ مَعَ الغُواةِ بَدَلُوهِم وَأَسَمْتُ سَرَحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَساموا
وَبَلَغْتُ ما بَلَغَ امرؤُ بِشَبابه فإذا عَصارةُ كُلِّ ذاكَ أَثامُ!



أنفة العتاب

(بحر الطويل)

على أيّنا تعدو المنيّة أولُ
إن ابزأك خصمٌ أو نبا بك منزلُ
وأحبسُ مالي إن غرمت فأعقلُ
يمينك، فانظر أيّ كفّ تبدّل!
وفي الأرض عن دار القلَى متحوّلُ
على طرفِ الهجران إن كان يعقلُ
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحلُ
إليه بوجه آخر الدهر تُقبلُ

قال معن بن أوس المُرَني:

لعمرك ما أدري - وإني لأوجلّ -
وإني أخوك الدائم العهد لم أحلّ
أحاربُ من حاربت من ذي عداوةٍ
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتنِي
وفي الناس إن رثت جبالك واصلُ
إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدتهُ
ويركبُ حدّ السيف من أن تضيّمهُ
إذا انصرفت نفسي عن الشّيء لم تكذُ



المناظر المتعبة

(بحر الطويل)

لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
عليه، ولا عن بغضه أنت صابرُ

قال أحدهم:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً
رأيت الذي لا كُله أنت قادرُ



فليتنق الله سائله

قال أبو تمام: (بحر الطويل)
هو اليمُّ من أيِّ النواحي أتيتَه فلجَّته المعروف والجودُ ساحلُه
تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لوأنَّه ثناها لِقَبْضٍ لم تُجبهُ أناملُه
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ رُوحِه لجادَ بها، فليتنقِ اللهَ سائلُه



والمنايا رَصَدُ

قالت السُّلَكَةُ أم السُّليكَ ترثيه: (مجزوء المديد)
طافَ يَبْغِي نَجْوَةً مِنْ هَلَاكِ فَهَلَكُ
لَيْتَ شِعْري ضَلَّةً أَيُّ شَيْءٍ قَتَلَكَ؟
أَمْرِيضٌ لَمْ تُعْذْ؟ أَمْ عَدُوٌّ خَتَلَكَ؟
كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكَ
وَالْمَنَايَا رَصَدٌ لَلْفَتَى حَيْثُ سَلَكَ
لَيْتَ قَلْبِي سَاعَةً صَبْرَهُ عَنْكَ مَلَكَ
لَيْتَ نَفْسِي قُدِّمَتْ لِلْمَنَايَا بِدَلَكَ



حَتَّكَتُهُ التَّجَارِبُ

قال عبد العزيز بن زرارَةَ الكلابي: (بحر البسيط)
قَدْ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَارًا عَلَى طُرُقِ شَتَّى، فَصَادَفْتُ مِنْهُ اللَّيْنَ وَالْفُظْعَا
كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعْتُ مِنْ لَأْوَائِهِ جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا



وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالٍ

قال المتنبي قصيدةً في رثاء والدَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، ومنها: (بحر الوافر)
نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالٍ
نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نُبَالٍ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْني سِهَامٌ تَكْسَرُ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أَبَالِي بِالرِّزَايَا لَأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي



لَسْتُ الْمَلُومَ

وقال:

(بحر الكامل)

أَبْعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي فَأَهْتَنِّي وَقَذَفْتَنِي مِنْ حَالِقِ
لَسْتُ الْمَلُومَ! أَنَا الْمَلُومُ لِأَنَّنِي أَنْزَلْتُ آمَالِي بَغِيرِ الْخَالِقِ



(تَزَاكُمُ الْأَضْدَادِ)

قال أبو العلاء المعرِّي في رثاء أحد الفقهاء الأحناف: (بحر الخفيف)

صَاحَ هَٰذَا قُبُورُنَا تَمَلَّأَ الرُّخَا بَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَّفِ الْوَطْءَ مَا أَظَنَّ أَدِيمَ الْ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَٰذِهِ الْأَجْسَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاكُمِ الْأَضْدَادِ
تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْدَ حَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ
إِنَّ حُزْنَآ فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
ضَجَعَةَ الْمَوْتِ رَقْدَةً يَسْتَرِيحُ الْ جِسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ الشُّهَادِ



فَيَا حَجَرَ الشَّحْدِ

قال ابن تومرت:

(بحر المتقارب)

أَخَذْتَ بِأَعْضَادِهِمْ إِذْ وَنَوْا وَخَلَّفَكَ الْقَوْمَ إِذْ أَسْرَعُوا
وَأَصْبَحْتَ تَهْدِي وَلَا تَهْتَدِي وَتُسْمِعُ وَعَظًا وَلَا تَسْمَعُ
فَيَا حَجَرَ الشَّحْدِ حَتَّى مَتَى تَسُنُّ الْحَدِيدَ وَلَا تَقْطَعُ



زُخْرُفُ الْقَوْلِ

قال ابن الرومي:

(بحر البسيط)

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَغْتَرِيهِ سُوءُ تَغْيِيرِ
تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ دَمَمْتَ تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدَحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصَفَهُمَا حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظُّلَمَاءَ كَالنُّورِ



فضل الثاني

وقال:

(بحر البسيط)

نَارُ الرَّوْيَةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضَجَةٍ وَلِلْبَدِيَّةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحٍ
وَقَدْ يَفْضُلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّهُ عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ



عَرَضٌ مَصُونٌ

قال علي بن الجهم:

(بحر الوافر)

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبِّهُهُ بَلَاءٌ عَدَاوَةٌ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينِ
يُيْحِكُ مِنْهُ عَرِضًا لَمْ يَصْنُهُ وَبَرَّتْكَ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونِ



عَفْوُ الْمُقْتَدِرِ

قال عبدالله بن الربيع الحارثي:

(بحر البسيط)

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ - وَإِنْ شَرُّفُوا - حَتَّى يَذَلُّوا - وَإِنْ عَزُّوا - لِأَقْوَامِ
وَيُسْتَمَوْا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مَسْفَرَةً لَا صَفَحَ ذُلٌّ وَلَكِنْ صَفَحَ أَحْلَامِ



الشرُّ يبدؤه صفارُه

قال شبيب بن البرصاء: (بحر الطويل)
وإنِّي لَتَرَأَاكَ الضَّغِينَةُ قَدْ بَدَا ثَرَاهَا مِنَ الْمَوْلَى، فَمَا أَسْتَثِيرُهَا
مَخَافَةً أَنْ تَجْنِي عَلَيَّ، وَإِنَّمَا يَهْيِجُ كَبِيرَاتِ الْأُمُورِ صَغِيرُهَا
تَبَيَّنُ أَعْقَابُ الْأُمُورِ إِذَا مَضَتْ وَتُقْبَلُ أَشْبَاهَا عَلَيْكَ صَدُورُهَا



إقدامٌ على بصيرة

قال مضرُّ بن ربيعٍ الأسدي: (بحر الطويل)
إِيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَوَسَّعْتُ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ الْمَصَادِرُ
فَمَا حَسَنُ أَنْ يَعْدِرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ عَازِرُ



إحدى النوائب

وقال ابن الرومي: (بحر الطويل)
وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطَوَّلَ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تُرِنِي الْأَيَّامُ خِلَاءَ تَسْرُنِي بَوَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا قَلْتُ أَرْجُوهُ لَدَفِ مِلْمَةٍ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى النَّوَائِبِ

حظوظ

قال المعلوط القريعي: (بحر الطويل)

وليس الغنى والفقر من شيمة الفتى ولكن أحاط قسّمت وُجودُ
إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديدُ



كنز الصبر

وقال أبو الحسن الجرجاني: (بحر الطويل)

إذا شئت أن تستقرضَ المالَ مُنفقاً على شهواتِ النفسِ في زمنِ العسرِ
فسل نفسك الإنفاقَ من كنزِ صبرها عليك، وإنظاراً إلى زمنِ اليسرِ
فإن سمحت كنتَ الغنيَّ، وإن أبْتَ فكلُّ منوعٍ بعدها واسعُ العذرِ



مقالة السوء

قال محمد بن حازم الباهلي: (بحر السريع)

ومن دعا النَّاسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ
مقالةُ السُّوءِ إلى أهلها أسرعُ من مُنحدرِ سائلِ

أَقْسَمُ جِسْمِي

وقال عروة بن الورد: (بحر الطويل)
إني امرؤ عافي إنائي شِرْكَةٌ وأنتَ امرؤ عافي إنائكَ واحدُ
أتهزأُ منِّي أن سَمِنتَ؟ وأن ترى بوجهي سُحُوبَ الحقِّ؟ والحقُّ جاهِدُ
أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جِسْمِ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ



فَصِيرَ آخِرَهُ أَوَّلًا

قال محمودُ الورَّاق: (بحر المتقارب)
يُمَثِّلُ ذُو الْعَقْلِ فِي نَفْسِهِ مَصَائِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرَعْهُ لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلًا
رَأَى الْأَمْرَ يُفْضِي إِلَى آخِرٍ فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلًا



عِلْمُ الْأَبَاعِرِ

قال مروان بن أبي حفصة: (بحر الطويل)
زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

الحمق الجميل

قال لقيط بن زرارَة: (بحر الطويل)
أَغْرَكُمُ أَنِي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ بصيرٌ وَأَنِي بالفواحش أَخْرَقُ
وإنْ تَكُ قد سَابَيْتَنِي فَقَهَرْتَنِي هَنِئًا مَرِيئًا أَنْتِ بالفُحْشِ أَحْدَقُ



المنزل الخشن

قال دِعبِل الخزاعي: (بحر البسيط)
وإنْ أَوْلَى البرايا أَنْ تَوَاسِيَهُ عند السُرورِ لِمَنْ واساكِ فِي الحَزَنِ
إنْ الكِرامِ إِذا ما أَيْسَروا ذَكَروا مَنْ كان يَأْلُفُهُمْ فِي المَنْزِلِ الخَشِنِ



أحلام الكرى

قال عمران بن حطان السدوسي: (بحر الرمل)
يَأْسُفُ المَرْءُ عَلى ما فَاتَهُ مِنْ لُباناتٍ إِذا لَمْ يَقْضِها
وتَراهُ فَرَحًا مُسْتَبْشِراً بالتي أَمْضى كَأَن لَمْ يُمَضِّها
إِنَّها عَندِي كأَحلامِ الكَرى لِقَريبٍ بَعْضُها مِنْ بَعْضِها

نعمة الأذى

قال أبو الطيب المتنبي: (بحر البسيط)

فارقتكم فإذا ما كان عندكم قبلَ الفراقِ أذىً، بعدَ الفراقِ يدُ
إذا تذكرت ما بيني وبينكم أعانَ قلبي على الشوقِ الذي أجْدُ



الحُب والأذى

قال أسماء بن خارقة الفزاري مخاطبًا زوجته: (بحر الطويل)

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تستديمي مودتي ولا تنطقي في سَوْرَتِي حينَ أغضبُ
فإني رأيتُ الحُبَّ في القلبِ والأذى إذا اجتمعَا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يذهبُ



تَلَفَّتُ القلب

قال الشريف الرضي: (بحر الكامل)

ولقد مررتُ على ديارِهِم وطُلُوها بيدِ البلى نَهَبُ
فوقفتُ حتى ضجَّ من لَعَبٍ نِضْوِي، ولجَّ بعذلي الرُّكْبُ
وتَلَفَّتْ عيني، فَمُذْ خَفِيتُ عني الطُّلُولُ تَلَفَّتْ القلبُ



من الحمام إلى الحمام

قال أبو الطيب المتنبي:
يقول لي الطبيب: أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أني جواد أضرت بجسمه طول الحمام
تعود أن يُعبر في السرايا ويدخل من قنم في قنم
فإن أمرض فما مريض اصطباري وإن أحمم فما حمم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام



إعراض كريم

قال زهير بن أبي سلمى:
وذي خطلٍ في القول يحسب أنه مُصيبٌ فما يُلم به فهو قائله
عبأت له حلماً، وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله



هَمْ مُنْتَشِر

(بحر البسيط)

وقال كعبُ بن زهير:

لو كنتُ أعجَبُ من شيءٍ لأعجَبَنِي سعيُ الفتى وهوَ مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأُمورٍ ليس مُدركَها فالنفسُ واحدةٌ والهَمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أَمَلٌ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ



لَيْنُ العَزَّة

(بحر الطويل)

قال أبو الشيص الخزاعي:

كريمٌ يغضُّ الطرفَ فضلُ حيائه ويدنو وأطرافُ الرِّماحِ دَوَانِ
وكالسيفِ إن لايتَه لَانَ مُسُهُ وحدَّاهُ إن خاشَتَهُ خَشِنَانِ



لولا بُنَيَات..

(بحر السريع)

وقال حطَّانُ بن المعلَّى:

لولا بُنَيَاتُ كزُغِبِ القَطَا رُدَدَنَّ من بعضٍ إلى بعضٍ
لكان لي مُضْطَرَبٌ واسعٌ في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعَرْضِ
وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبَّتِ الرِّيحُ على بعضِهم لامتَنَعَت عيني من الغَمَضِ

زجاجة بشرية

وقال قيس بن الملوّح: (بحر الطويل)
أُقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
لَقَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
وَأَنْتِ الَّتِي صَيَّرْتَ جِسْمِي زَجَاجَةً تَنْمُ عَلَى مَا تَحْتَوِيهِ الْأَضَالِعُ



قتل الأحرار

قال أبو الطيب: (بحر الطويل)
وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحَرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا؟
إِذَا أَنْتِ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتِهِ وَإِنْ أَنْتِ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمْرَدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعَلَا مَضْرُوءُ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى



هوى الفؤاد

وقال: (بحر الخفيف)
صَارَ مَا أَوْضَعَ الْمُخْبُونُ فِيهِ مِنْ عِتَابٍ زِيَادَةً فِي الْوَدَادِ
وَكَلَامُ الْوَشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَحَدِ جَابِ، سُلْطَانُهُ عَلَى الْأَضْدَادِ
إِنَّمَا تُنْجِحُ الْمَقَالَةَ فِي الْمَرِّ إِذَا صَادَفَتْ هَوَى فِي الْفُؤَادِ

مما طلة..

قال الشاعر:

(بحر البسيط)

إن كنتَ لم تنو فيما قلتَ لي صلةً فما انتفاعك من حبسي وترديدي؟
فالمنعُ أجملُه ما كان أعجلُه والمطلُ من غير عُسرِ آفةِ الجودِ



شيمتك الحياء

وقال أمية بن أبي الصلت:

(بحر الوافر)

أأذكرُ حاجتي؟ أم قد كفاني حياؤك؟ إن شيمتك الحياءُ
وعلمك بالحقوقِ وأنتَ فرعُ لك الحسبُ المهدبُ والسناءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا كفاهُ من تعرُّضه الثناءُ



لا أرى أحدا

قال دعبل الخزاعي:

(بحر البسيط)

ما أكثرَ الناسَ! لا بل ما أقلُّهم! اللهُ يعلمُ أنني لم أقلُ فندًا
إنني لأفتحُ عيني حينَ أفتَحُها على كثيرٍ، ولكن لا أرى أحدا

لم يستوف قط كريم

قال الخطابي:

(بحر الطويل)

تسامح ولا تستوف حَقَّكَ كُلَّهُ وأبقِ، فلم يستوف قطَّ كريمُ
ولا تغلُ في شيءٍ من الأمرِ واقتصدْ كلا طرفي قَصْدِ الأمورِ ذميمُ



نوم مشرد

قال أبو تمام:

(بحر الطويل)

ولم تعطني الأيامُ نومًا مُسَكَّنًا أَلَدُّ به إلا بنومٍ مشرَّد
وطولُ بقاءِ المرءِ في الحيِّ مُخلِقُ لِدِيَابَجَتِيهِ فاغترَبَ تتجدَّد
فلإني رأيت الشمسَ زِيدَتْ محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ



أطعت مطامعي

قال القاضي عبد الوهاب المالكي:

(بحر الوافر)

طلبتُ المستقرَّ بكل أرضٍ فلم أرَ لي بأرضٍ مستقرًّا
ونلتُ من الزمانِ ونال مني فكان مناله حلواً ومُرًّا
أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنت حُرًّا

قناة صليبة

قال إبراهيم النبهاني: (بحر الطويل)
تعزَّ فإنَّ الصبرَ بالحُرِّ أجملُ وليس على ريبِ الزمانِ معوَّلُ
فإن تكن الأيامُ فينا تبدَّلتُ بيؤسى ونُعمى، والحوادثُ تفعلُ
فما ليئتُ منَّا قناةَ صليبةً ولا ذلَّلنا للتي ليس تجملُ
ولكن رحلناها نفوسًا كريمةً تُحمِّلُ ما لا يُستطاعُ فتحملُ



لزوم العصا

قال لبيد بن ربيعة: (بحر الطويل)
وما المرءُ إلا كالشَّهابِ وضوئه يحورُ رمادًا بعدَ إذ هو ساطعُ
أليس ورائي إن تراخت منيَّتي لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ
أخبرُ أخبارَ القرون التي مضتُ أدبُ كأني كلما قمتُ راکعُ!



خاتل يدنو لصيد

قال أبو الطمحان القيني: (بحر الوافر)
حَتَّني حانياتُ الدَّهرِ حتَّى كأني خاتِلُ يدنو لصيدِ
قريبُ الخطوِ يحسُّ مَنْ رآني -ولست مقيِّداً- أني بقيدِ

قذى عينيه

قال عبد الله بن الزبير: (بحر الطويل)
سأشكرُ عَمْرًا ما تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أيادي لم تُمَنَّنْ وإن هي جَلَّتْ
فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه ولا مُظْهِرِ الشَّكْوَى إذا النُّعْلُ زَلَّتْ
رأى خَلَّتِي من حيثُ يخفى مكانها فكانت قَذَى عَيْنِهِ حتى تَجَلَّتْ



منه شيبانُ

قال ابن الرومي: (بحر البسيط)
قالوا أبو الصقرِ من شيبانَ قلتُ لهم: كلا لعمرى، ولكن مِنْهُ شيبانُ
وكم أبٍ قد علا بابنِ ذُرَى شَرَفٍ كما علا برسول الله عدنانُ
تَسْمُو الرجالُ بآباءٍ، وآونةً تسمو الرجالُ بآبناءٍ وتزدانُ



صبر الراس

قال أعرابي: (بحر الكامل)
اصبر نكن لك تابعين فإنما صبر الجميع بحُسنِ صبر الراسِ
خيرٌ من العباسِ أجركُ بعده والله خيرٌ منك للعباسِ

إحدى يدي أصابتني

قال أعرابي: (بحر البسيط)
أقول للنفس - تأساء وتعزية - : إحدى يدي أصابتني ولم تُردِ
كلاهما خَلَفَ مِنْ فَقْدِ صاحِبِهِ هذا أخي حين أدعوه، وذا ولدي!



قومٌ سواء

وقال أعرابي يهجو قومًا من طيء: (بحر الوافر)
ولمّا أن رأيتُ بني جوينِ جلوسًا ليس بينهم جليسُ
يُسْتُ من التي قد جئتُ أبغي لديهم، إنني رجلٌ يؤوسُ
إذا ما قلتُ أيُّهمُ لأيّ تشابهت المناكبُ والرؤوسُ



حجة اللئام

قال المتنبي: (بحر الخفيف)
ذلٌّ من يغطِ الذليل بعيشٍ ربّ عيشٍ أخفُّ منه الحمامُ
كل حلُمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لاجئٍ إليها اللئامُ
من يهنّ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

سهل فيها إذا هو كانا

وقال أيضا: (بحر الخفيف)
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَلْنَا الشَّجَعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ، مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْدَافِ، سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا



رجال الحقائق

قال الوزير ابن المغربي: (بحر الطويل)
مَرَرْتُ بِقَبْرِ ابْنِ الْمُبَارَكِ غُدُوَّةً فَأَوْسَعَنِي وَغُظًّا، وَلَيْسَ بِنَاطِقِ
وَقَدْ كُنْتُ بِالْعِلْمِ الَّذِي فِي جَوَانِحِي غَنِيًّا، وَبِالشَّيْبِ الَّذِي فِي مَفَارِقِي
وَلَكِنْ أَرَى الذِّكْرَ تَبَّهَ غَافِلًا إِذَا هِيَ جَاءَتْ مِنْ رِجَالِ الْحَقَائِقِ



حقيقة الفخر

وقال أبو الأسود الدؤلي: (بحر البسيط)
كَمْ مِنْ حَسِيبٍ أَخِيٍّ وَطَمْطَمَةٍ فَدَمٍ لَدَى الْقَوْمِ مَعْرُوقٍ إِذَا انْتَسَبَا
فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ أَبَاؤُهُ نُجَبٌ كَانُوا رُؤُوسًا فَأَمْسَى بَعْدَهُمْ ذُنُبَا
وَخَامِلٍ مَقْرَفٍ الْأَبَاءِ ذِي أَدَبٍ نَالَ الْمَعَالِيَ بِالْأَدَابِ وَالرَّتَبَا

وربُّ الدار كاره

قال ابن قدامة: (مجزوء الكامل)

لا تَجْلِسَنَّ بِيَابِ مَنْ يَأْبَى عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِهِ
وتقولُ: حاجاتي إليهِ يَعْوقُهَا إِنْ لَمْ أُدَارِهِ
اتركه واقصِدْ رَبَّهَا تُقْضَى، وربُّ الدار كاره!



شكر يستوجب الشكر

قال محمود الوراق: (بحر الطويل)

إذا كان شكري نعمةً الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجب الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بِفَضْلِهِ وإن طالتِ الأيامُ واتَّصلَ العُمْرُ



سَلَّمَ الرَّجَاءُ

قال الإمام الشافعي: (بحر الطويل)

ولما قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جعلتُ رجائي دونَ عَفْوِكَ سُلَّمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فلما قَرَنْتُهُ بعفوك ربي كان عَفْوُكَ أعظمًا
فما زِلْتُ ذا عَفْوٍ عن الذنبِ لم تزل تجود وتعفو مِنَّةً وتكرِّمًا

الفصل الثاني

شرح المختارات

شرح بيتي: (وهو منطلق)

قال جُوَيْيَّةُ بن النَّضَر^(١):

إِنَّا إِذَا اجْتَمَعْتُ يَوْمًا دَرَاهِمَنَا ظَلَلْتُ إِلَى طُرُقِ الْمَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ

اشتكت امرأة هذا الشاعر إليه سرعة فناء أموالهم، فقال لها: إن دراهمنا إذا اجتمعت تسابقت إلى مسالك المعروف، وتسارعت إلى طرق الخيرات.

لَا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ صُرَّتَنَا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهَوَ مُنْطَلِقُ!

الدرهم المضروب: المسكوك أو المختوم. والدرهم المسكوكة هي التي كان الناس يتعاملون بها، وبالسكّ يتميز الدرهم الخالص من الدرهم المغشوش. والصُرَّة: تُحَفَظُ بها الدراهم.

يقول: ولقد بلغ من كرمنا أن الدرهم لا يألف صُرَّتَنَا ولا يستقر بها، وإنما يمر عَلَيْهَا مرورًا ثم ينطلق إلى سبل المعروف، فالدرهم لا تستقر وتُخَلَّدُ إلا في صُرَّةِ البخيل.

وتعبيره هنا بالاسم (منطلق) أبلغ من التعبير بالفعل (ينطلق)، لأنَّ الاسم فيه معنى الثبوت والاستقرار، والفعل فيه معنى الحدوث والتجدد، والشاعر يريد أن يُثَبِّتَ للدرهم صفة الانطلاق من غير إشعار بتجدد وحدوث، قال عبد القاهر الجرجاني معلقاً على هذه الكلمة في البيت: (هذا هو الحسنُ اللائقُ بالمعنى، ولو

(١) شاعر إسلامي متقدم، ترجمته شحيحة، وهذه القطعة المتتخبة هي ضمن أربعة أبيات اختارها أبو تمام في ديوان الحماسة.

قلته بالفعل (ينطلق) لم يحسن^(١).

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال:

وكُلِّما لقي الدينارُ صاحبه في مُلكه افترقا من قبل يصطحبا!

(١) دلائل الإعجاز ١/ ١٧٥، وانظر: خصائص التركيب أ.د. محمد أبو موسى (٢٩٦).

شرح أبيات: (دبيب الكسالى)

قال حوطُ بنِ رثاب الأسدي^(١):

دَبِيتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَّغُوا جَهْدَ النَّفُوسِ وَأَلْقُوا دُونَهُ الْأُزْرَا

دبيت: الدبيب هو المشي المتتد.

والساعون: جمع الساعي وهو الماشي بسرعة وجد.

قد بلغوا جَهْدَ النَّفُوسِ: أي بلغوا التَّعب والمشقة.

الْأُزْرَا: جمع إِزَار، وإلقاء الإزار كناية عن الاجتهاد في طلب الشيء.

والمعنى أنك تدب دبيباً نحو المجد، ومع ذلك ترجو أن تصل لمبتغاك، وغيرك
بذل جهداً عظيماً في السعي إليه، وألقى إزاره دون ذلك، فلن تصل إلى مبتغاك، ولن
تكون مثل الساعين بحال من الأحوال.

فكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم وعانقَ المجدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبَرَا

فكابدوا المجد: تحمّلوا ما عرض لهم من المشاق في سبيل تحقيقه.

وعانق المجد: حققه ووصل إليه.

مَنْ أَوْفَى: مَنْ الْوَفَاء.

وَمَنْ صَبَرَا: أي على الشدائد والصعاب التي عرضت دونه.

(١) شاعر مخضرم، من بني ثعلبة بن دودان من بني أسد، اشتهر في الجاهلية، وأدرك الإسلام.

والمعنى أن المجد الذي دبت إليه، اجتهد آخرون في طلبه، وأكثر هؤلاء الذين سعوا واجتهدوا ملؤوا أيضا وتوقفوا، ولم ينل المجد إلا أهل الصبر على الشدائد.

لا تحسب المجد تمرا أنت أكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

والصبر: بكسر الباء عصاره شجر مر.

والمعنى: لا تتوهم أن تحصيل المجد سهل يسير يُنال بملازمة وسائل الراحة، والتقلب على المضاجع في الفرش الوثيرة، فإنه لن يُنال إلا بتحمل المشاق وتجرع المرارات والصبر على العوارض والصوارف.

استشهاد لطيف:

قال أبو نصر هارون بن موسى^(١): كنا نختلف إلى أبي علي القالي - رحمه الله - وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء، ونحن في فصل الربيع، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلسه - رحمه الله - إلا وقد ابتلت ثيابي كلها، وحوالي أبي علي أعلام أهل قرطبة، فأمرني بالدنو منه وقال لي: مهلا يا أبا نصر! لا تأسف على ما عرض لك! فهذا شيء يضمحل عنك بسرعة بثياب غيرها تبدلها، ولقد عرض لي ما أبقى بجسمي ندوبا تدخل معي القبر، ثم قال لنا: كنت أختلف على ابن مجاهد رحمه الله فأدلجت إليه لأتقرب منه. فلما انتهيت إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفتته مغلقا وراث (أي تعسر) علي فتحة. فقلت: سبحان الله أبكر هذا البكور، وأغلب على القرب منه؟!!

فنظرت إلى سرب بجانب الدار فاقتحمته، فلما توسطته ضاق بي، ولم أقدر على الخروج ولا على النهوض، فاقتحمته أشد اقتحام حتى نفذت بعد أن تخرقت

(١) إنباه الرواة للقفي (٣/ ٣٦٢).

ثيابي، وأثر السَّرْبُ في لحمي حتى انكشف العظم، ومنَّ الله علي بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال. فأين أنت مما عرض لي؟ وأنشدنا:

دَبَيْتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا جَهَدَ النَّفُوسِ وَأَلْقُوا دُونَهُ الْأُزُرَا
فَكَابِدُوا الْمَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبَرَا
لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

قال أبو نصر: فكتبناها عنه من قبل أن يأتي موضعها في نوادره، وسلَّاني بما حكاه، وهان عندي مَا عَرَضَ لي من تِلْكَ الثياب، واستكثرت من الاختلاف إليه، ولم أفارقه حتى مات رحمه الله.

شرح أبيات: (صخرة الأسرار)

قال مسكين الدارمي^(١):

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سرّ بعض غير أنّي جماعها

وفتيان: بالجر، والتقدير: وربّ فتيان.

وأضاف الفتيان إلى الصدق، كما يقال: فتيان خير، والمعنى أنهم صادقون في ودادهم.

جماعها: الجماع: اسم لما يجمع به الشيء، أي جماع الأسرار.

فيقول: ربّ فتيان وثقوا بي، واستناموا إليّ، واستودعوني أسرارهم، وجعلوا فؤادي موئلها، لا أطلع بعضهم على أسرار بعض.

لكل امرئٍ شِعْبٌ من القلب فارغٌ وموضعٌ نجوى لا يُرامُ أطلّاعُها

لكل واحدٍ من هؤلاء الفتيان مكان في الفؤاد لا يشركه فيه غيره، قد فرّغ لنجواه وخصّ بأحاديثه، وقد انقطعت أطماع الخلق من الاطلاع عليه.

يَظْلُونَ شَتَى في البلاد، وسرّهم إلى صخرة أعيان الرجال انصداعُها

(١) ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي، شاعر عراقي أموي، لقّب مسكينا لأبيات قال فيها: (أنا مسكين..)، ومن شعره المشتهر في كتب النحاة:
(أخاك أخاك، إن من لا أخ له *** كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح).

يظنون شتى في البلاد: أي يغيبون عنه، ورغم ذلك يبقى سرهم في موضعه مكتوماً لا يُرِيم ولا يَبْرَح، فلا يحمله ابتعادهم عن ناظره على الإفشاء بما استودعوه من أسرار، كأن سرهم أُودِعَ صخرة صماء قوية أعجز الرجال صدْعُها وشَقُّها لو أرادوا ذلك.

وقوله: (إلى صخرة) أي هو مضمومٌ إلى صخرة.

وقد أشار مسكين الدارمي في أبياته الثلاثة إلى ثلاثة معانٍ متظاهرةٍ في توكيد الكتمان:

أحدها: أن إفشاء أحد من الناس بأسراره إليه لا يحمل مسكيناً على أن يفضي بأسرار الآخرين إليه، فهو لا يطلع بعضهم على أسرار بعض. فكثير من الناس حينما تبوح له بأسرارك يشبك بكشف أسرار الآخرين لك.

الثاني: أن اقتراب أحدهم كابتعاده، له في الحالين موضع من القلب فارغ لا يرام الاطلاع عليه.

الثالث: شبه صدره بالصخرة التي لا تنصدع، ففي الصخرة معنى الاستقرار والثبات على مر الزمان وتبدلات الأحوال، وانقلاب المودة أو انحسارها، وهذا بخلاف حال كثير من الناس، فإنهم يحفظون الأسرار في حال الإلف والقرب، وينشرونها في حال العداوة والبعد.

شرح أبيات: (مقابر المحاسن)

قال قَعْنَبُ بنِ ضَمْرَةَ^(١):

إِنْ يَسْمَعُوا رِبِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِّي، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

مَنِّي: أي من جهتي.

يقول: إذا سمعوا عني سيئة طاروا بها فرحاً، وأشاعوها في الأقطار، وأذاعوها في الأمصار، وإذا سمعوا حسنة منسوبة إلي كتموها ودفنوها كيلا يراها أحد من الناس.

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

صُمُّ: أي هم صُمُّ، أَذِنُوا: اسْتَمَعُوا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ٢]، أي: استمعت لربها، وحُقَّ لها أَنْ تَسْتَمَعَ وَتُطِيع.

أي من شأنهم أنهم يمسون صُمًّا إذا ذُكِرَتْ محاسني، ويقال للمعرض عن الشيء: هو أَصَمُّ عنه.

لكن إذا عُرِضَتْ عيوبِي وجدتهم أَشَدَّ النَّاسِ إِنْصَاتًا وَاسْتِمَاعًا.

وهذا المعنى يُشَبِّه قول الشاعر:

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفَوهُ، وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذَاعُوا، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا!

(١) قَعْنَبُ بنِ ضَمْرَةَ الغطفاني، شاعر أموي، يقال له: «ابن أم صاحب»، هجا الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد اشتهر له هذان البيتان المختاران في البرنامج.

شرح أبيات: (فليتك تحلو)

قال أبو فراس الحمداني (٣٥٧هـ)^(١):

إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَالَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابُ

إذا هجرَكَ خَلِيلُكَ بلا سبب يقتضي ذلك إلا الملل والسآمة؛ فلا خير لك في
صُحبته، ولا ينفع في معابته إلا فراقه!

وهذا المعنى متوارد عند الشعراء، قال بشار:

إِذَا كَانَ ذَوَاقًا أَخُوكَ مِنَ الْهَوَىٰ مُوجَّهَةً فِي كُلِّ أَوْبٍ رَكَابُهُ
فَخَلَّ لَهُ وَجْهَ الْفِرَاقِ وَلَا تَكُنْ مَطِيَّةَ رَحَالٍ كَثِيرٍ مَذَاهِبُهُ
بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ؟

وإلا فمن الصاحب الذي يوثق فيه حين تنزل النازلة! ومن أين يجد الحرّ صحابا
أصفياء؟!

وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذُنَابًا عَلَىٰ أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ!

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أبو فراس الحمداني: أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة الذي كان يمدحه المتنبي، وقد كان الصاحب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك -يعني بالأول: امرأ القيس وبالثاني: أبا فراس-، جرح في معركة مع الروم، فأسروه، واشتهرت قصائده الروميّات، وبقي عند الروم في القسطنطينية أعواما، ثم فداه ابن عمه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبي: كانت لأبي فراس منبج، وتملك حمص، وسار ليملك حلب، فقتل في تدمر.

فإن الناس قد أمسوا -إلا قليلا منهم- ذئابا تتقنع بأقنعة البشر! فلست أجازي كل واحد من هؤلاء الذئاب بصنيع، وقد روي عن سهل بن حنيف أنه قال (قال أبي لأنس بن مالك: «يا خال، إن الناس ليسوا بالناس الذي كنت تعهد، إنما هم الذئاب عليهم الثياب فاحذرهم»)^(١).

وما كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ
وَرَبِّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ!

ولربما أثقلَ أحدهم عليّ بالكلام الفاحش والسباب البذيء، فلم أعزّه اهتماما، ولم أمنحه جوابا، ومرّ كلامه فوق مسامعي كما يمرُّ طنين الذباب في شدة الحرّ.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خراب^(٢)

فليتك - أيها الخلّ - تحلو، ولا أبالي بمُرّ الحياة بعد ذلك، وليتك - أيها الصفيّ - ترضى، وكل غضبٍ غير غضبك فهو هيّن.

(١) مسند ابن المبارك (٢٤٩).

(٢) وهذه من أشهر قصائد أبي فراس الحمداني تلك التي كتبها وهو في الأسر عند الروم، وهي ما اصطلاح المؤرخون قديما وحديثا على تسميتها بالقصائد (الروميات)، وقد كُتبت الدراسات المفردة عن تلك القصائد على وجه الخصوص: في بيان خصائصها، وشرح أثر الأسر على نفسية أبي فراس وشعره الروميّ المتقلّب ما بين إقبال نفسه وإدبارها، وبأسها ورجائها، وطمعه في سرعة الفداء من الأسر وما يصاحب ذلك من المبالغة في التودد والتلطف لابن عمه، ثم هيمنة الشعور بالخيبة والخذلان من الناس، وما يصاحب ذلك من ذمهم والزهد في مصاحبتهم، مع حضور واضح لنفسية القائد الجريح المخدول في الأسر، ومداداة تلك الجراح الراحقة بالركون إلى غرض الخيلاء والفخر، وغير ذلك من الأغراض والمعاني المتعددة، وهذه الأبيات المنتخبة من أشهر تلك (الروميات).

وهذان البيتان الأخيران في هذه القطعة متوجهان لسيف الدولة على وجه الخصوص، وفيهما نوعٌ مبالغٍ وخروج عن المعتاد في مخاطبة البشر، لذلك كثيرًا ما يجريان على ألسنة الناس في باب الابتهاال إلى الله تعالى والركون إليه، لاسيما حين يستحوذ على أحدهم شعور الخذلان من الناس واليأس من تحصيل رضاهم، وقلما استشهد بهما أحد في هذا الغرض الشريف إلا وجد سلوانًا وبردًا في قلبه.

ومثلُهما قول المتنبي في حق سيف الدولة:

يا من ألوذ به فيما أومله وممن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

قال ابن كثير - رحمه الله -: بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى. وأخبرني العلامة ابن القيم رحمه الله أنه سمع شيخ الإسلام يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمنناه من الذل والخضوع^(١).

(١) البداية والنهاية (١٥ / ٢٧٥)، وأشار له ابن القيم في شفاء العليل (٢٠).

شرح أبيات: (الغلو ذريعة الانتقاص)

قال ابن الرومي (٢٨٣هـ) ^(١):

إذا ما وَصَفْتَ امرأً لامرئٍ فَلَا تَغُلْ فِي وَصْفِهِ واقْصِدْ

إذا وصفت امرأة فلا تبالغ في الثناء عليه، وعليك بالتوسط والاعتدال في ذلك، لأن زيادة الثناء تأتي بنقيض المقصود كما سيبتين.

فإنَّكَ إنْ تَغُلْ تَغُلْ الظُّنُ نٌ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ

إنك إن غلوت فيه غَلَّتِ الظنون البشرية وجنحت التوهيمات النفسية فيه إلى مدى بعيد يتجاوز حقيقته، فإذا حضر وشوهد طفقت النفوس تطالبه بما هو خارج عن طاقته، فكان ذلك المدح وبالا عليه، فالمدح الزائد يبطل سحر الدهشة، ويجعلك

(١) علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر كبير هَجَاء، من طبقة المتنبي موهبة، رومي الأصل، كان جدُّه من موالي بني العباس، وُلد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد)، وكان ابن الرومي قد هجَّاه، وقال ابن خلكان: صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها، ويرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية. وأبرع ما اشتهر به ابن الرومي الوصف، وكان يغالي فيه العقاد ويقول: لست أعرف فيمن قرأت لهم من مشاركة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعرا واحدا له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي. ومن أشهر شعره داليتُه في رثاء ولده محمد. قيل -في قصة موته-: إن القاسم بن عبيد الله الوزير كان يخاف من هجو ابن الرومي، فدس عليه طعاما مسموما فأحس بالسم، فوثب، فقال الوزير: إلى أين؟ قال: إلى موضع بعثتني إليه. قال: سلَّم على أبي. قال: ما طريقي على النار! فبقي بعدها أياما، ومات. كتبت عنه بعض الدراسات المعاصرة نحو كتاب «ابن الرومي حياته من شعره» لعباس محمود العقاد.

تتطلب المزيد مهما كانت حقيقة الممدوح، وإذا تكلم المرء بما يحسن دون أن تثار حوله جعجة مديح مسبقة؛ انتزع الإعجاب وأثار الانبهار.

فَيَنْقُصُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

فَيَحْصُلُ خِلَافُ مَقْصُودِكَ، وينقص قدره من جهة تعظيمك إياه، وذلك لأن الخبر عن الغائب يكون فوق حقيقة الحال في العادة.

ولهذا المعنى يتحاشى كثير من الأذكياء أن يأخذ الناس عنه انطبعا كاذبا ولو كان مدحا، وذلك لمعرفة العميقة أن الناس بقدر ما يرفعون المرء فوق مرتبته، فإنهم إذا لم يجدوا في الواقع ما يصدق تلك الانطباعات المتوهمة فإنهم يقفزون فورا إلى الشط الآخر، ويبالغون في خفضه وخطئه حتى عن مرتبته الحقيقية، فبقدر الارتفاع الكاذب يكون الإسقاط الجائر، وقد أشار إلى هذا المعنى الدقيق أبو عبد الله ابن القيم - رحمه الله - فذكر أن (من المدح ما يكون ذما وموجبا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُمدح بما ليس فيه فتطالبه النفوس بما مُدح به، وتظنه عنده، فلا تجده كذلك فتقلب ذما، ولو ترك بغير مدح لم تحصل له هذه المفسدة)^(١).

(١) زاد المعاد (٢/ ٤١٠).

شرح أبيات: (شقاء المحب)

قال أحدهم^(١):

وما في الأرض أشقى من محبٍّ وإن وجد الهوى حلّو المذاقِ
نراه باكيا في كل حينٍ مخافةً فرقة أو لاشتياقِ
فيكي إن نأوا شوقًا إليهم ويكي إن دنوا خوف الفراقِ
فتسخن عينه عند التنائي وتسخن عينه عند التلاقي

أكثر الناس يعانون من محبوباتهم أكثر من مبغضاتهم، لذا قال أحد المحبين القدامى متألماً ومصوراً اتحاد النعيم والعذاب والحلاوة والمرارة في ذات واحدة:

أنتِ النعيم لقلبي والعذابُ له فما أمرُّك في قلبي وأحلاكِ

وهذا كله في المحبوبات الدنيوية الفانية، فإنها كلما أوغلت في تلافيف الفؤاد كانت أشدَّ ألماً وأعظم أثراً، سواء ظفر المحب بالمحجوب أو لم يظفر به، وقد كان ابن تيمية -رحمه الله- يقول: (فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد،

(١) نسبتها مضطربة، وقد نسبها بعض المعاصرين لورد بن عمرو الجعدي، وهو شاعر جاهلي، استناداً منهم -والله أعلم- لعبارة موهمة لشارح الحماسة المرزوقي، وفي النفس من هذه النسبة أشياء، فلغة الأبيات وروحها يوحى بزمان صاحبها، فهي إلى أشعار الإسلاميين أقرب، وهي على كل حال من أشعار ديوان الحماسة، ومما أملاه الزجاجي، وكان يستشهد بها ابن القيم رحمه الله في كتبه.

أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء^(١).

وهذه الأبيات الأربعة تفصّل شيئاً من هذا الشقاء الروحي للمحبين مع اختلاف الأحوال ما بين حال حصول المحبوب والظفر به، أو حال فقدته والحرمان منه.

ومعنى تَسَخَّنَ عَيْنُهُ: أي تبكي، ويقال إنَّ دَمْعَةَ الْغَمِّ حَارَّةٌ، وهو نقيض: قَرَّتْ عَيْنُهُ.

(١) مجموع الفتاوى (١/٢٩).

شرح بيتي: (استسهال البدايات)

قال العباس بن الأحنف (١٩٢هـ)^(١):

الحبُّ أوَّلُ ما يكونُ لِحاجةٍ تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتَّى إذا اقتحمَ الفتى لُججَ الهوى جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ!

اختلف الناس في العشق، هل هو اختياريٌّ يسعى إليه العاشق بمحض إرادته؟ أم هو اضطراريٌّ ينفذ إلى القلب على حين غرّة ويحتل ضفافه على حين غفلة؟ إذ لا يتصور بعضهم كيف يسعى الإنسان بقدميه إلى ما فيه ذلّ نفسه وعذابها، فالعشق له تكاليف وتبعات - كما هو معلوم - تتنافى مع أنفة الروح الكريمة.

عرض ابن القيم - رحمه الله - الخلاف في هذه المسألة، ثم ذكر جواباً فصلاً، وهو أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلية تحت التكليف، فإن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره.^(٢)

وهذا جواب محكم، فهناك مرحلة اختيار وقبول وتحرر للإرادة يذكرها العاشق جيداً، لكنه كان في أثنائها يعذب بالجمر بأصابعه، ويموّل قلبه بما سلبه الإرادة وحرية

(١) العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، أصله من اليمامة في نجد، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحرني: أغزل الناس، وكان أهله في البصرة، وبها مات أبوه، ونشأ هو ببغداد، وتوفي بها، وقيل بالبصرة، جعل غالب شعره في غرض الغزل، ولم يقل في المديح والهجاء إلا نزرًا، وله أخبار مع هارون الرشيد وغيره.

(٢) ينظر: روضة المحبين (٢١٨).

التصرف لاحقاً، بعدها وجد نفسه في مرحلة توافد المتاعب الكبار، وشعر فيها أنه
أمسى مسيراً لا مخرجاً!

وقد أحسن العباس بن الأحنف في تصوير هاتين المرحلتين، وذكر أن أول
الحب لَجاجةٌ من المحب، فيقال: لَجَّ في غيِّه لَجاجةٌ أي تماذَى، ثم بعد ذلك التماذي
منه وَفَدَّت عليه الأمور الكبار التي لا تطاق!

شرح أبيات: (سباع بشرية)

قال أبو الطيّب المتنبي (٣٥٤ هـ)^(١):

إنما أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ يتَفَارِسُنَ جَهْرَةً وَاغْتِيالا

أراد بالأنيس الناسَ، فجعل نفوسَ الناسِ مثلَ السِّباعِ الضارية، يفرسُ بعضها بعضًا إما مجاهرةً، وإما مخادعةً ومخاتلةً، كما تفعل السِّباعُ في الغابة.

مَنْ أَطاقَ التماسَ شيءٍ غلابا وَاغْتِصابا، لم يَلْتَمِسْهُ سؤالا!

الغلاب: المغالبة. والاعتصاب: الأخذ بالقهر.

يقول: مَنْ قَدَرَ على مراده بالغصب والقوة، لم يطلبه بالسؤال أو بالمخادعة.

كُلُّ غَادٍ لِحاجةٍ يَتَمَنَّى أن يكونَ الغَضَنَفَرُ الرُّبَّالَا

الغدو في الأصل: الذهاب في وقت الغدو، وهو أول النهار، والمراد به في البيت:

مطلق الذهاب، أي وقت كان. والغضنفر والرئبال: مِنْ أسماء الأسد.

(١) أحمد بن الحسين أبو الطيّب الجعفي الكوفي المتنبي الشاعر، قيل بأنه ادعى النبوة في أول شأنه ثم رجع عن ذلك فسمي بالمتنبي، وكان هو ينكر وقوع ذلك، أَكْثَرَ المَقَامِ بالبادية لاقتباس اللغة، ونظر في فنون الأدب والأخبار وأيام الناس، وتعاطى قول الشعر في صغره حتى بَلَغَ فيه الغاية، ومدح الملوك، وفي شعره ما يوحي بأنه كان يبحث عن ولاية، وسار شعره في الدنيا في حياته وبعد مماته، وله الأمثال السائرة والمعاني المبتكرة، قال ضياء الدين نصر الله ابن الأثير: سافرت إلى مصر ورأيت الناس يشتغلون بشعر المتنبي، فسألت القاضي الفاضل، فقال: إنّ أبا الطيّب ينطق عن خواطر الناس! مات مقتولا وعمره إحدى وخمسون سنة.

وقد كان الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - شديد الحفاوة والإعجاب بهذه الأبيات الثلاثة للمتنبي، ومن جملة ما كتب عنها: (أي دقة وأي هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذي لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا في كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وبيانه؟ فخذ مثلاً لفظ «الأنيس»، وتخبر ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبي لفظه، واقرأ وانظر وتدبر، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر في مكانه من البيت؟ ضع مكانه «الإنس» أو «البشر» أو «الناس» أو «الأنام» أو ما شئت، سواء استقام الوزن أو لم يستقم، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعا، فهو قد اختار اللفظ والبناء الذي يدل دلالة على المؤانسة والرفق والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع، ليظهر لك أنها تخفي تحت هذا كله طباعا وحشية ضارية، مترفة حيناً وباغية أحيانا، فمهد للصورة التي أرادها باللفظ الذي لا يُستغنى عنه في دقة الصورة وحسن بيانها..^(١).

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر (١/٢٩٨).

شرح أبيات: (لذة السعي إلى الأمان)

وقال أبو الطيب كذلك:

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ ربُّه وفي الهجرِ، فهو الدهرَ يرجو ويتَّقِي

ربُّه: صاحبه. والدهر: ظرف.

يقول: أحلى الهوى ما كان صاحبه مرتاباً في حصول الوصلِ متخوفاً من وقوع الهجر، فعامة الأمانى إذا تحققت في الواقع فقدت كثيراً من بريقها وبهجتها، بخلاف ما يتوهمه أكثر الناس من أن السعادة في تحقيق الأمانى الدنيوية وحصولها، والحقيقة التي يدركونها آخر المطاف هي أن السعادة الحقيقية تكمن في السعي إلى تحقيق الأمانى وهي تلوح من بعيد وتتمنع، ثم تقترب شيئاً فشيئاً، فإذا حصلت وألفها المرء خبائثاً من وهجها المتخيل، ولذلك يقول الشاعر المتقدم:

لولا أطراؤ الخيل لم تك لذة فتطاردي لي بالوصال قليلاً!

ولم أرَ كالألحاظِ يومَ رحيلهم بعثن بـكلِّ القتلِ من كلِّ مُشفِقٍ

الألحاظ: العيون. يقول: لم أرَ مثل صنيع العيون يوم رحيلهم، كيف اجتمع فيها القتل والشفقة! وهذه هي عيون المحبوب المحب!

أدرنَ عيوننا حائراتٍ كأنها مُركبةٌ أحداقها فوق زئبقٍ

قيل بأن الضمير في (أدرن) لألحاظ المودعات. ورؤي: (أدرنا) أي نحن أدرنا. فيقول: كنا نُقلِّبُ عيوننا حائراتٍ عند وداعنا، لا تبصر شيئاً مما دهانا من ألم الفراق،

فكأن العيون من كثرة حركاتها وقلة استقرارها كأنما وضعت أحداقُها على الزئبق،
فهي حائرةٌ لا تسكن، ودائبةٌ لا تفتّر.

عشيةٌ يَعدونا عن النَّظَرِ البُكِيِّ وَعَنْ لَذَّةِ التَّوَدِيعِ خَوْفُ التَّفَرُّقِ

عشية: وقت العشيّة، أي كانت هذه الحالة وقت العشية. يَعدونا: يمنعنا ويصدُّنا.

يقول: عشيةٌ يصرفنا البكاء عن النظر إلى من نحب، والبكاء يمنع من النظر
وَيُقْلِّصُه، لأن الدمع يحول بين العين وبين ما تُشَاهِدُه، فيمسي الباكي كمن يرى من
وراء زُجاجةٍ محدّبة، ووصفه أبو حية النمري بقوله:

نظرتُ كأني من وراء زجاجةٍ إلى الدار من فرط الصبابة أنظرُ
فعيناي طوراً تغرقان من البكا فأعشى، وطوراً تحسران فأبصرُ

وقول أبي الطيب (وعن لذة التوديعِ خوفُ التفرق): أي عشيةٌ يعدونا ويصرفنا
خاطر خوفِ الفراق عن لذة توديع الذين نحبهم.

(والأبيات الثلاثة الأخيرة في وَصْفِ لحظاتِ الوداع).

شرح بيتي: (استبداد الشعور)

قال الطَّرْمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ (١٢٥هـ)^(١):

مَتَى مَا يَسُوْ ظُنُّ امْرِئٍ بِصَدِيقِهِ وَلِلظَّنِّ أَسْبَابٌ عِراضُ الْمَسَارِحِ
يُصَدِّقُ أُمُورًا لَمْ يَجْنُهَا يَقِينُهَا عَلَيْهِ، وَيَعْشُقُ سَمْعُهُ كُلَّ كَاشِحٍ

المَسْرَحُ يَفْتَحُ المِيمَ المَرْعَى الذي تَسْرَحُ فِيهِ الدُّوَابُ للرَّعْيِ، وَجَمَعَهُ الْمَسَارِحُ.
الكَاشِحُ: العَدُو.

وَكأنه شَبهَ المَرْعَى الذي تَرْعَى فِيهِ الدُّوَابُ بِالذَّهْنِ الذي تَجُولُ فِيهِ الْخَوَاطِرُ
وَالظُّنُونُ.

يَقُولُ: إِذَا سَاءَ ظُنُّ المَرءِ بِصَاحِبِهِ - وَأَسْبَابُ الظَّنِّ كَثِيرَةٌ - فَإِنَّهُ يَصَدِّقُ عَنْهُ أُمُورًا
وَأَخْبَارًا لَمْ يَتَيَقَّنْ مِنْ صِدْقِهَا وَوُقُوعِهَا، وَيُرْخِي سَمْعَهُ لِكَلَامِ كُلِّ عَدُوِّ كَاشِحٍ، وَلَا
يَكْتَفِي بِمَجْرَدِ السَّمَاعِ، بَلْ إِنَّهُ يَأْنِسُ بِذَلِكَ وَتَمِيلُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَتَتَعَشَّقُهُ أَذُنَاهُ!

(١) الطَّرْمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ، شَامِي المَوْلَدِ وَالْمَنْشَأُ، شَاعِرٌ إِسْلَامِي فَحْلٌ، انْتَقَلَ إِلَى الكُوفَةِ، فَكَانَ
مُعَلِّمًا فِيهَا، وَاعْتَقَدَ مَذْهَبَ الْأَزَارِقَةِ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ نَرِ أَحَدًا قَطُّ أَعْلَمَ بِالشَّعْرِ مِنْ شُعْبَةَ بْنِ
الْحِجَاجِ (المَحْدَّثِ)، قَالَ لِي: كُنْتُ - قَبْلَ طَلْبِ الْحَدِيثِ - أَلْزَمَ الطَّرْمَاحَ أَسْأَلَهُ عَنِ الشَّعْرِ.
وَكَانَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ يَحْفَظُ دِيْوَانَهُ كَامِلًا بِغَرِيْبِهِ وَمَعَانِيهِ. وَمِمَّا يُسْتَغْرَبُ فِي تَرْجُمَةِ الطَّرْمَاحِ
أَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا لِلْكَؤْمِيَّةِ الشَّاعِرِ، لَا يَكَادَانِ يَفْتَرِقَانِ. قَالَ الْجَاهِظُ: لَمْ يَرَ النَّاسَ أَعْجَبَ حَالًا
مِنَ الْكُؤْمِيَّةِ وَالطَّرْمَاحِ، وَكَانَ الْكُؤْمِيَّةُ عَدْنَانِيَا عَصِييًّا، وَكَانَ الطَّرْمَاحُ قَحْطَانِيَا عَصِييًّا، وَكَانَ
الْكُؤْمِيَّةُ شَيْعِيًّا مِنَ الْغَالِيَةِ، وَكَانَ الطَّرْمَاحُ خَارِجِيًّا مِنَ الصُّفَرِيَّةِ، وَكَانَ الْكُؤْمِيَّةُ يَتَعَصَّبُ لِأَهْلِ
الْكُوفَةِ، وَكَانَ الطَّرْمَاحُ لِأَهْلِ الشَّامِ، وَبَيْنَهُمَا مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْخَاصَةِ وَالْمَخَالِطَةِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ
نَفْسَيْنِ قَطُّ، ثُمَّ لَمْ يَجْرَ بَيْنَهُمَا صَرْمٌ وَلَا جَفْوَةٌ وَلَا إِعْرَاضٌ وَلَا شَيْءٌ مِمَّا تَدْعُو هَذِهِ الْخِصَالَ
إِلَيْهِ. وَقِيلَ لِلْكُؤْمِيَّةِ ذَلِكَ: قَالَ اتَّفَقْنَا عَلَى بَغْضِ الْعَامَّةِ.

فكلما هبت نسائم الظنون السيئة استقرت في جوف تربة العلاقة بذرة التصديق
المجرد من الدليل لكل قائل، ولذلك يقول أبو الطيب المتنبي -وهي ضمن هذه
المختارات-:

إنما تنجح المقالةُ في المَرِّ ءِ إذا صادفتَ هوىً في الفؤادِ

شرح بيتي: (قبول المعاذير)

قال أحدهم^(١):

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا إِنَّ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرًا
فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرِضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا

اقبل عُذْرَ مَنْ اعتذر إليك سواء صدق في اعتذاره أو كذب فيه، ولا تفتش وراء هذا العذر الذي أبداه لك، فَيَكْفِيكَ منه أن أرضاك ظاهره، وأنه لا يخالفك إلا في السِّرِّ إجلالاً لك.

(١) مُضْطَرِباً النِّسْبَةَ فِي الْمَصَادِرِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيُّ (٣٢٨هـ) فِي كِتَابِ الْعِقْدِ دُونَ نَسْبَةِ لِقَائِهِ.

شرح أبيات: (حزازت النفوس)

هرب زفر بن الحارث الكلابي^(١) في وقعة مرج راهط، وترك القتال، وقال معتذرا عن هروبه عدة أبيات، منها:

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَاتَهُ بِصَالِحِ آبَائِي وَحُسْنِ بَلَائِيَا

يقول: إن لي من حسن البلاء في الحروب، والصبر عند المواقف، ما لا ينكره أحد، أفيزهد هذا كله ويُنسَى لأجل يوم واحد هربت فيه؟!

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيََا

المرعى: يعني به الثبات الحسن المنظر، الطيب المطعم.

دِمَنِ الثَّرَى: الثرى التراب، والدِمَنِ هو ما تخلّفه الماشية من أبوال وأبعار، فإذا نبت موضعها كان خبيثا فاسدا.

حزازات النفوس: جمع حزازة، وهي ما يحزّ في النفس من غيظ وغضب.

يقول: قد يصلح النبات الفاسد بعد خبيثه، وتغسله الأمطار حتى يذهب ما فيه من الوباء، أما حزازات النفوس فلا يكاد يغسلها شيء، وإنما تبقى ساكنة في القواد.

(١) زفر بن الحارث الكلابي، أبو الهذيل، أمير، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميرا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري، وقُتل الضحاك، فهرب زفر إلى قرقيسيا، وبها عياض، فمنعه عياض من دخولها، فقال له زفر بن الحارث: أوثق لك بالطلاق والعتاق إذا أنا دخلت الحمام بها أن أخرج منها، فأذن له فدخلها، فلم يدخل الحمام، وأقام بها وأخرج عياضا عنها، ولم يزل متحصنا فيها حتى مات، وكانت وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان.

شرح أبيات: (ربما أفسد التماذي)

قال أعرابي^(١):

مَا لِعَيْنِي كُحِلَتْ بِالشُّهَادِ وَلِجَنبِي نَابِيَا عَنْ وَسَادِي

الشُّهَاد: الْأَرْقُ. نَابِيَا مِنَ النَّبُو: وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالْإِرْتِفَاعُ.

الْوَسَادُ: الْمِخْدَةُ، وَهُوَ مَا يَوْضَعُ تَحْتَ الرَّأْسِ.

يقول: مَا بَالُ عَيْنِي كَأَنَّهَا كُحِلَتْ بِالسَّهْرِ وَالْأَرْقِ، فَلَا تَكَادُ تَذُوقُ طَعْمَ النَّوْمِ، وَمَا بَالُ جَنْبِي مَرْتَفَعًا قَائِمًا فَلَا يَدْعُ رَأْسِي يَسْتَقِرُّ عَلَى الْوَسَادِ.

وَقَالَ: عَيْنِي. وَالْمَعْنَى الْعَيْنَانِ كِلَتَاهُمَا. وَقَالَ: جَنْبِي: وَالْمَعْنَى الْجَنْبَانِ كِلَاهُمَا.

لَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا مِثْلَ حَسْوِ الطَّيْرِ مَاءِ الثَّمَادِ

الْغِرَار: الْقَلِيلُ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: غِرَارُ النَّوْمِ قَلْتُهُ.

الْحَسْوُ لِلطَّائِرِ كَالشُّرْبِ لِلْإِنْسَانِ، يُقَالُ: حَسَا يَحْسُو حَسْوًا، وَلَا يُقَالُ لِلطَّائِرِ: شَرِبَ.

الثَّمَاد: الْمَاءُ الْقَلِيلُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْحُفْرِ.

يقول: لَا أَذُوقُ مِنَ النَّوْمِ إِلَّا مِثْلَ مَا يَحْسُو الطَّائِرُ مِنَ الْمَاءِ الْمَجْتَمِعِ فِي الْحُفْرِ.

أَبْتَغِي إِصْلَاحَ سُغْدَيَّ بِجُهِدِي وَهِيَ تَسْعَى جُهِدَهَا فِي فَسَادِي

(١) قَالَ الْمَبْرَدُ: هَذِهِ أَبْيَاتُ أَرْبَعَةٍ أُتِّشِدْنَاهَا عَنْ الزَّيَادِي، وَذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَحْسِنُهَا، وَهِيَ لِأَعْرَابِي. وَالزَّيَادِي الْمَقْصُودُ هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَفْيَانَ الزَّيَادِي، مِنْ أَحْفَادِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ: أَدِيبٌ، رَاوِيَةٌ، كَانَ يَشَبَّهُه بِالْأَصْمَعِيِّ فِي مَعْرِفَتِهِ بِالشَّعْرِ وَمَعَانِيهِ.

الجُهد: الطاقة.

بهذا البيت دخل الأعرابي في تفسير سَبَبِ شكايته من اكتحال عينيه بالسهاد، ونَبُوَّ جنبيه عن الوساد، وهو أنه يبذل طاقته في السعي لما يصلح أحوال سُعدى، بينما هي بالمقابل تسعى في بذل طاقتها في فسادِ أحواله.

وربما يُفهم من قوله: أنه يسعى في صلاح أحوالها، أن سُعدى هي زوجة هذا الأعرابي صاحب الأبيات، وأن سَعْيَه لصلاح أحوالها هو بأن تستقيم على ما يريده منها فتدوم العشرة بينهما، ففي هذه الحال يستقيم معنى سَعْيِه لصلاح أحوالها وصلاح أحواله في آن.

فَتَتَّارَكْنَا عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ رُبَّمَا أَفْسَدَ طَوْلُ التَّمَادِي

التتارك: ترك بعضنا بعضا.

التمادي: التماضي في الأمر الإلحاح فيه، وطول الإقامة عليه.

يقول: تتركنا وهجر بعضنا بعضاً على غير اتفاقٍ بيننا فيما يصلح أحوالنا، أو تتركنا على غير سَبَبٍ مُوجِبٍ لهذا التتارك.

ربما أفسد طول التَّمَادِي: ربما تطاول هذا التتارك بيننا وتمادى، فأفسد حالينا وجعل استصلاح الأحوال عسرا للغاية. فالعلاقة بين المحبين إذا تكدرت وتأخر استصلاحها فإنها تتعقد جبالها، ويعسر عودة مياهاها إلى مجاريها، بعد أن شقت المياه السابقة مجاري جديدة لها.

وهذا المعنى يشبه قول العباس بن الأحنف في اثنين جرى بينهما خلاف ولم

يتصالحا:

إِنْ التَّبَاعِدُ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمْا دَبَّ السَّلْوُ لَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ

وربما قصد الشاعر الأعرابي بالتّماذي معنى آخر، وهو أن تماذي صاحبه
سُعدى في حالها هو الذي صدّع بنيان العلاقة، وقَطَعَ جِبال الوِصال، وأفسد الأمور.
والمعنى الأول أعمق، والثاني قريب. واللفظ يحتملهما.

شرح أبيات: (وملّت سليمى)

طعن صخرُ بن الشريد^(١) في معركة قاتل فيها قتالا شديداً، فمرض من جرحه ولزم الفراش، وطال به مرضه حولا كاملا، وكانت تقوم على رعايته وهو في تلك الحال أمه وزوجته، وكان بين زوجته وأمّه قديما شيء من الخصومة، وربما كان صخر يميل إلى جانب زوجته، وأصبح قومه يعودونه وهو في فراشه أنهكه التعب، فسمع يوما أحدهم يقول لزوجته: كيف أصبح صخر اليوم؟ فقالت -وقد ملّت منه-: لا حيّا فيرجى ولا ميتا فينسى! فسمع صخر كلامها فشقّ عليه جدا، وسمع آخر يقول لأمّه: كيف أصبح صخر اليوم؟ فقالت: أصبح بحمد الله صالحا، ولا يزال بحمد الله بخير ما رأينا سواده. أي ما رأيناه. وهم صخر بقتل زوجته من الغيظ، ولم يستطع أن يحمل السيف، فأنشأ يقول:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملّت سليمى مضجعي ومكاني

عيادتي: زيارتي مرة بعد مرة، وغالبًا ما تسمّى زيارة المريض عيادة، لأنها تعود مرة بعد أخرى.

يقول: أرى أم صخر ما تفتأ ترعاني وتقوم علي في مرضي وتصلح من حالي، أما زوجتي سليمى فقد سئمت من ذلك، وملّت مضجعي ومكاني.

فأي امرئ ساوئ بأّم حليّة فلا عاش إلا في أذى وهوان

(١) صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي، أخو الخنساء الشاعرة. كان من فرسان بني سليم، ولأخته (الخنساء) شعرٌ كثير في رثائه ورثاء أخيه معاوية المقتول قبله، ومن مشهور ما قالت فيه: وإن صخرًا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار.

حليمة: زوجة.

يقول: من كان يسوي في المنزلة بين أمه وزوجته، ويقارب في الدرجة بينهما، فلا عاش إلا في أذى وهوان، وأين الأم من الزوجة؟!

لَعَمْرِي لَقَدْ نَبَّهْتُ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتُ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

يعني لما قالت عنه: (لا حيا فيرجى، ولا ميتا فينسى)، وحين ملّت رعايته وعبادته كما تقدم في خبر القطعة.

فيقول: نَبَّهْتُ بهذا الموقف الذي وَقَفْتِيهِ كُلَّ أَحَدٍ حَتَّى النَّائِمِ، وَأَسْمَعْتُ كُلَّ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ! وأراد بهذا الكناية عن كون موقف سليمي سيعتبر به كلُّ من بَلَغَهُ وَعَلِمَ بِهِ.

أَهْمُ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْتَطِيعَهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ!

العير: حمار الوحش.

ونزوان العير: وثوبه على أنثاه.

يقول: أهم بقتلها وشفاء صدري منها لو أستطيع ذلك! ولكن قد أقعدني مرضي فحيل بيني وبين ذلك كما حيل بين العير والنزوان.

وقد أرسل الشطر الأخير مثلا، يضرب فيمن يحول بينه وبين مقصوده شيء.

وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك، ومن يغتر بالحدثان!

جنازة: قال الأصمعي وغيره: الجنازة بالكسر الميت، والجنازة بالفتح السرير^(١).

(١) المصباح المنير (١/ ١١١).

والعرب تقول: هو عليه جنازة، إذا كان ثقيلا عليه.

الحدثان: مصدر حدث، أي ما يحدث من نوائب الزمان وصروف الدهر.

يقول: وما خشيت يوما أن أكون ثقيلا عليك، وما ظننت أن ذلك مكاني منك،

ولكنَّ الناس يتبدل ودأدهم! ومن الذي يغتر بحوادث الزمان!؟

شرح بيتي: (الغياب الموجه)

قال مُهْلِلُ بْنُ رَبِيعَةَ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ كَلِيبٍ ^(١):

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ

استَبَّ المجلس: صار أهل المجلس يسبُّ بعضهم بعضاً.

يقول: نبئت أن نيران الضيافة أضرمت بعد غيابك، وأن أهل المجلس تداولوا الأحاديث بعد رحيلك، بل إنهم بالغوا في التخفف من الأعباء وفي اطراح الكلفة في أحاديثهم حتى صاروا إلى حال يسبُّ فيها بعضهم بعضاً، وقد كانوا من فرط هيبتك وقوة تأثيرك لا يجروون على فعل شيء من ذلك.

فقد كان كليب في حياته مهيباً لا يجسر أحدهم على الحديث بين يديه، ولا توقد مع ناره للضيفان ناراً في حماه، إعظاماً لقدره وإجلالاً لشأنه، فيقول مُهْلِلُ عَلَى وَجْهِ التَّحَسُّرِ:

وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبَسُوا

لم ينبسوا: يُقال كلمته فما نبس، أي لم يتكلَّم بحرف.

تكلموا وخاضوا في الأمور الكبار، ولم يعد الكلام بينهم منتظماً، ولو كنت

(١) عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني جشم بن بكر، من أهل نجد، أبو ليلى، المهلهل، لُقِّبَ مُهْلِلُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَلَّلَ نَسَجَ الشَّعْرَ، أَي رَفَّقَهُ، وَهُوَ خَالُ الشَّاعِرِ اأَمْرِئِ الْقَيْسِ، كَانَ صَبِيحَ الْوَجْهِ فَصِيحَ الْلِسَانِ، عَكَفَ فِي صَبَاهِ عَلَى الْلُحُوقِ وَالتَّشْيِيبِ بِالنِّسَاءِ، فَسَمَاهُ أَخُوهُ كَلِيبُ: «زِيرُ النِّسَاءِ» أَي جَلِيسُهُنَّ. لَمَّا قَتَلَ جَسَّاسُ بْنُ مَرْةِ كَلِيبًا ثَارَ الْمُهْلِلُ لِأَخِيهِ، فَكَانَتْ وَقَائِعُ بَكْرٍ وَتَغْلِبُ، الَّتِي طَالَتْ وَامْتَدَّتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

يا كليب شاهدًا وحاضرًا ما جسروا أن يتقدموا بين يديك بشيء من الحديث.

وهذان البيتان من أروع ما قيل في غرض الرثاء وذلك لكونهما نجحا ببراعة في التقاط مشاعر الفقد المؤلمة، فمن أوجع ما في الفقد استشعار الأحياء قوة حضور الراحلين المعنوية، واستحضارهم لمكانتهم حينما كان يملؤون المجالس، ثم بعد ارتحالهم مضت الحياة بحالتها الرتيبة، لكن مع تبدل قسري في الأدوار، وانقلاب الهامش على المتن، وتقدّم الساقية على القافلة.

وليس بالضرورة أن يكون الراحل -كما كان كليب- ملكًا يقرع الناس بسيفه، بل فقدان الحضور الوجداني العميق الذي ييسط سلطانه المعنوي في النفوس هو أبلغ وألصق بالمعنى الجميل المضمّر في بيتي المهلهل.

شرح أبيات: (زفرة والد)

قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ (٩هـ) (١):

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا، وَعُلْتُكَ يَافِعًا تَعْلُ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ، وَتَنْهَلُ

غذوتك: قُمْتُ بمؤنتك. وعُلتك: كفلتك وأنفقت عليك.

اليافع: الغلام إذا شارَفَ البلوغ.

تنهل: النهل هو الشرب الأول.

والعلل: الشرب الثاني. يُقَالُ: عَلَّلَ بَعْدَ نَهْلٍ.

يقول: قمت بمؤنتك وأنت مولود، وكفيتك حاجاتك وقت شبابك، وأخذتُ أدني إليك مَصالحك، فتأخذ منها ما شئت مرة بعد أخرى. يذكره بأفضاله عليه لما رأى من تنكره وعُقوقه.

إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتَ لِشَكْوَاكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلَمَلُ

(١) أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، من أهل الطائف، شاعر جاهلي حكيم، قال أبو عبيدة: اتفقت العربُ على أن أمية أشعر ثقيف. كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح، وتعبد أولاً بذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرَم الخمر، وتجنب الأوثان، وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبيا يبعث بالحجاز. قال ابن حجر: والمعروف أنه مات في السنة التاسعة، ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافرا، وقيل: أنه الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. وروى مسلم في صحيحه عن الشريد قال: ردت رسول الله ﷺ يوما، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم، قال: «هيه» فأنشدته بيتا، فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتا، فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت. وفي البخاري قال رسول الله ﷺ: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

التَّمَلُّلُ: تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْفِرَاشِ، لَا يَسْكُنُ وَلَا يَسْتَقِرُّ.

الشُّكْوَى: الشُّكْوَى.

يقول: كُنْتُ إِذَا أَصَابَكَ مَا يُؤْذِيكَ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، سَهَرَتْ عَيْنِي فَلَا أَذُوقُ طَعْمَ النَّوْمِ.

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِفْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمِلُ

كَأَنِّي فِي تَمَلُّمِي عَلَى فِرَاشِي، وَسَهَرِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَفِيضِ عَيْنِي بِالْدمْعِ، أَنَا الْمَصَابُ بِمَا أَصَبَتْ بِهِ، وَلَسْتُ أَنْتَ.

تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ، وَإِنَّهَا لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلٌ

الرَّدَى الْهَلَاكُ. وَالْحَتْمُ: الْوَاجِبُ الْوَقُوعُ.

يقول: مع علمي أن الموت واقع حتما لكل أحد في نهاية المطاف، إلا أني كنت أحوطك وأخاف عليك منه، فهو يخاف عليه من الواقع حتما، فكيف بغيره؟!

فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتَ فِيكَ أَوْمِلُ

لما بلغت المرحلة التي تتعلق بك فيها غاية آمالي ومنتهى رجائي للفرح باكتمالك، والانتفاع بإحسانك:

جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاطَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ

هذا البيت هو جواب (لَمَّا) في البيت الذي قبله، أي: لما بلغت المرحلة التي أوملها، جعلت جزائي غلظة وفظاظة، كأنَّ الفضلَ لك والإنعامَ منك!

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَزِعْ حَقَّ أُبُوَّتِي فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمَجَاوِرُ يَفْعَلُ

ليتني حين فاتني حق الأبوة، ظفرتُ منك ولو بحق الجوار!

شرح أبيات: (فضيلة التغافل)

قال الشريف الرضي (٤٠٦هـ) ^(١):

وكم صاحب كالرُمح زَاغَتْ كُؤُوبُهُ أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا
زَاغَتْ: مَالَتْ.

كُؤُوبُ الرُمح: القصة التي تعقد الأنبيين مع بعضهما في الرماح.
الْغَمْرُ: تليين الرُمح واستصلاحه. ويتقوم: أي يستقيم.

يقول: وكم صاحب لي حاولت استصلاحه زمناً طويلاً فلم يتم لي ذلك
المبتغى.

تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا

المتبلج: المشرق والمضيء.

الإدماج: هو إدخال الشيء في الشيء.

يقول: لَمَّا أَيْسَتْ مِنْ اسْتِصْلَاحِ صَاحِبِي، تَقَبَّلْتُ مِنْهُ وَجْهًا ظَاهِرًا مُشْرِقًا
بِالصِّدْقِ فِي الْمُوَدَّةِ، رَغْمَ عِلْمِي أَنَّهُ أَخْفَى عَنِّي وَجْهًا مُخْتَلِفًا عَنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي
أَبْدَاهُ.

(١) محمد بن الحسين بن موسى من ذرية الحسين، وكان شيعياً، وهو نقيب الطالبين ببغداد.
قيل: هو أشعر الطالبين. قال الذهبي: له كتاب (معاني القرآن) ممتع يدل على سعة علمه.
مات وله سبع وأربعون سنة. ولزكي مبارك كتاب عبقرية الشريف الرضي.

وَلَوْ أَنَّنِي كَشَفْتَهُ عَنْ ضَمِيرِهِ أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَا تَمَّا

ولو أنني أبديتُ له علمي بما أخفاه، لأقمت ما تَمَّا وعزاءً على ما بيني وبينه من صداقة وإِلْفٍ، فإني رأيتُ أن أتغافل وأستبقيه مع وجود شيء من الخلل في مودته، فذلك خيرٌ عندي من مُكاشفَتِهِ ثم خسارَتِهِ كُلِّهِ، وهذا يشبه قول النابغة:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تُلَمُّهُ عَلَى شَعَثٍ.. أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذُبُ؟!

وقول بشار:

فَعَشَ وَاحِدًا أَوْ صَلَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مَقَارِفَ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمَجَانِبَهُ

إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعَتْهُ عَلَى مَضَضٍ، لَمْ تُبْقِ لِحْمًا وَلَا دَمًا

إذا كان العضو من أعضائك كلما أَلَمَكَ قَطَعَتْهُ، فإنك لن تَبْقِيَ لِحْمًا وَلَا دَمًا في جسدك، فكَذَلِكَ أَصْدَقَاؤُكَ إِذَا كُنْتَ تَبَادُرُ بِالْقَطْعِ وَالبِتْرِ لِكُلِّ مَنْ وَجَدْتَ مِنْهُ شَيْئًا مِنَ التَّقْصِيرِ فَلَنْ يَبْقِيَ لَكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

شرح أبيات: (عند الشدائد تذهب الأحقاد)

كان عيينة بن أسماء متزوجاً أخت الشاعر الأموي عوف بن معاوية المعروف بعوف القوافي^(١)، ثم إن عيينة طلق امرأته، فغضب عوف من عيينة غضباً شديداً لطلاقه أخته، وقال: الحرة لا تطلق بغير بأس. ثم دارت الأيام على عيينة، وتسَلَّطَ عليه الحجاج بن يوسف الثقفي، وجعله مَقِيداً في السَّجْن. فلما عَلِمَ عوفُ القوافي بما جرى لصاحبه، سرت في نفسه الشفقة والعطف، وذهبت أحقادُه. فأنشد:

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحْسُ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ، وَنَامَتِ الْعُودُ

الْعُودُ: جمع عَائِد، من العيادة، وهي تكرار الزيارة، وعودها مرةً بعد مرة، وتقدّم.

يقول: طار عن عيني النومُ بسبب ما أَهَمَّكَ وَأَحْزَنَكَ، وانفردت أنا بهذه الحال من بين سائر الناس الذين يعودونك، وقاسيت من الألم ما هان عليهم.

لَمَّا أَنَانِي عَنْ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ أَمْسَتْ عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الْأَقْيَادُ

تظاهر الأقياد: أي جَعَلُوا عليه الأقيادَ بعضها فوق بعض.

ومنه ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: (ظَاهَرَ بَيْنَ دَرْعَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ) أي لبسهما فوق بعض.

(١) عوف (ويقال له عوف) بن معاوية ابن عقبة، الفزاري، شاعر من أشراف قومه في الكوفة. اشتهر في الدولة الأموية بالشام، ومدح الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز. وسمي «عوف القوافي» بسبب بيت قاله. توفي تقريباً سنة (١٠٠هـ)، وقد اشتهرت له هذه القطعة المنتخبة، وهي من أبيات ديوان الحماسة.

نَخَلْتُ لَهُ نَفْسِي النَصِيحَةَ إِنَّهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَذْهَبُ الْأَحْقَادُ

نَخَلْتُ لَهُ: أَيِ أَخْلَصْتُ لَهُ نَفْسِي النَصِيحَةَ، وَصَفَّيْتُهَا مِنَ الْأَكْدَارِ، وَالنَصِيحَةُ:
الصدق في المودة وعدم الغش.

يَقُولُ: لَمَّا أَتَانِي ذَلِكَ الْخَبَرُ عَنْ صَاحِبِي أَذْهَبَ عَنِّي الرِّقَادُ، وَزَالَ مَا كَانَ فِي
صَدْرِي مِنَ الْغَلِّ عَلَيْهِ، وَمَحْضَتُهُ النَّصْحَ وَالْوَدَادَ، فَإِنْ نِيرَانِ الْمَصَائِبِ تَحْرَقُ أَكْوَامُ
الضَّغَائِنِ.

وهذا الشطر الأخير: (عند الشدائد تذهب الأحقاد) أرسله مثلاً يُسْتَشْهَدُ بِهِ
وحده، وتجده مسطوراً في كتب الأمثال وغيرها.

شرح أبيات: (رُقِيَّةُ الْحُبِّ)

كانت أُمُّ الضحَّاكِ المحارِبِيَّةُ متزوَّجَةً برجلٍ مِنْ بني الضُّبابِ، وكانت تحبُّه حبًّا شديداً حتَّى تعلَّقَ قلبها به، ثم إنه طَلَّقَهَا! فحزنتُ حزناً شديداً، وأنشدتُ فيه الأشعارَ، ومما أنشدته هذه القطعة التي تذكُر فيها أنها استفتت المحبين قبلها، فشرحوا لها دواءَ علَّتِها:

سألتُ المحبِّين الذين تحمَّلوا تباريحَ هذا الحُبِّ من سالفِ الدهرِ

تباريح: التباريح هي الشدائد والمشاق، وتباريح الحب تكاليفه ومشاقه.

سالف الدهر: قديم الزمان.

تقول: سألتُ المحبِّين الذين قاسوا شدائد الحبِّ، وتحمَّلوا تكاليفه من قديم الزمان.

فقلتُ لهم: ما يُذهب الحُبَّ بعدما تبوَّأ ما بين الجوانحِ والصِّدرِ

تبوَّأ: نزل وأقام.

الجوانح: أضلاع الإنسان مما يلي صدره.

تقول: سألتُ أولئك المحبِّين فقلتُ لهم: ما علاج العشق المستحكم؟ وما الذي يُذهب الحُبَّ وقد تمكَّنَ في قلبي؟

فقالوا: شفاءُ الحُبِّ حُبُّ يزيله لآخر، أو نأْيٌ طويلٌ على هَجَرِ

نأْي: بُعد.

تقول: فأجابوني بقولهم: شفاء الحبّ أحد ثلاثة أمور:

الأول: أن تبدّلي الحبّ القديم بحبّ جديد يعمر قلبك، فالقلب إناءٌ لا يقبل الفراغ بطبعه، وإذا احتل شغافه شيء شغله عن غيره.

والثاني: الهجر والإعراض والبعد مدة طويلة عن المحبوب وبواعث ذكره، فإن القرب منه يشعل نيران المحبة كلما أوشكت على الانطفاء.

أو اليأس حتى تذهل النفس بعدما رجت طمعاً، واليأس عونٌ على الصبرِ

تذهل: تنسى وتنشغل.

أما الأمر الثالث: فاليأس من عودة الحبّ إلى سالف عهده، فإن اليأس غنى، وهو -كما تقول العرب-: إحدئ الراحتين، وأما الطمع فهو ذلّ، وفي قطع رقبة الطمع، عون للإنسان على الصبر والسلوّ.

شرح أبيات: (إن الشجا يبعث الشجا)

قَالَ مُتَمِّمُ بْنُ نُؤَيْرَةَ^(١):

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك

تذراف: صيغة تكثير من الذرف، وذرف الدموع سيلانها.

السوافك: السفك الصَّب، وكثيراً ما يُستعمل في الدم والدمع.

يقول: لقد لامني رفيقي لما رأي أبكي على القبور في طريقي، واستنكر مني كثرة إراقتي الدموع وصبها.

فقال: أتبكي كل قبر رأيته؟ لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

ثوى: حل وأقام. اللوى والدكادك: موضعان معروفان.

يقول: فقال لي صاحبي مستنكراً: أتبكي كل قبر تراه في طريقك لأجل قبر أخيك الذي حل بين اللوى والدكادك؟ فما شأنك وهذه القبور!

فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا! فدعني، فهذا كله قبر مالك!

(١) متمم بن نويرة بن جمرة التميمي، أبو نهشل: شاعر فحل، صحابي، وكان من أشراف قومه، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك، ومن مشهور رثائه لأخيه، هذه القطعة المنتخبة في البرنامج، ومن مشهوره أيضاً قوله:

وكنّا كندمانى جذيمة حِقْبَةً من الدهر، حتى قيل: لن يتصدعا!

فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطلول اجتماع لم يَبْتَ ليلةً معاً!

وسكن متمم المدينة، في أيام عمر، وتزوج بها امرأة لم ترص أخلاقه لشدة حزنه على أخيه.

الشجاء: الحزن والهم.

يقول: فقلتُ له: إن الحزن يبعث الحزن، والذكرى تجرُّ أختَهَا، فدعني وأقصر
عن لومي، فإني أرى كلَّ قبرٍ أمامي قبرَ أخي مالك بن نوية!

شرح أبيات: (فكشفه التمحيص)

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر^(١):

رأيتُ فضيلاً كان شيئاً ملفّقاً فكشّفه التمحيصُ حتى بدا لي

يقول: كان فضيل هذا شيئاً مستوراً، لا يُدرى ما هو، ولا يُعلم ما الذي انطوى عليه صدره، فلما كان وقتُ الجَد استبانَت حقيقَتُهُ، وبدا لي أمرُهُ ظاهراً.

أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة؟ فإن عرَضت أيقنْتُ أن لا أخاليا!

يقول: أأكونُ أخي في حال الرخاء، وتُظهِر لي الود والصفاء، ثم إن أَلَمَّت بي نازلةٌ أو عرَضت لي حاجةٌ فقدتكَ! وأيقنْتُ أن لا أخ لي على وجه الحقيقة!

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

يقول: اعلم أن كلًّا مِنّا في غنى تامٍّ عن صاحبه حالَ حياته، ثم إذا متنا فإننا أشدُّ استغناءً وأعظم استقلالاً، فالتباعد أليق بنا من هذه الأخوة لا تجدي علينا شيئاً.

(١) عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، خرج بالكوفة في خلافة مروان بن محمد، فبعث إليه مروان جنداً فلحق بأصبهان فغلب عليها وعلى تلك الناحية، واجتمع إليه قوم كثير، وذلك في سنة إحدى وثلاثين ومائة، ثم قتل، ويقال: بل هرب فلحق بخرسان، وأبو مسلم يدعو بها فبلغه مكانه، فأخذه فحبسه في السجن حتى مات، اشتهرت له هذه القطعة المنتخبة، ومنها البيت الشهير:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا.

شرح أبيات: (فكانها أحلام)

قال أبو تمام^(١) (٢٣١هـ):

ولقد أراك، فهل أراكِ بِغِبْطَةٍ والعيشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلَامٌ؟!

الغِبْطَةُ: السرور. الغَضُّ والغَضِيضُ: الطريُّ.

يقول: هل سأبتهج برؤيتك ونحن في حياةٍ طريّة هانئة، والزمان فيها سمح سهل في مستقبل أيامه، والمقصود بكون الزمان غلاماً أن الأحداث التي تقع في ظرف ذلك الزمان تكون مواتية لما نحب من دوام اللقيا وزوال المكدرات. وفي هذا المعنى يقول المتنبي:

أتى الزمان بنوه في شببته فسرّهم، وأتيناه على الهرمِ

أعوامَ وصلٍ كاد يُنسي طولها ذكرُ النوى، فكانها أيامُ

النوى: البعد.

يقول: هل أراكِ أيتها الديار بغبطة أعوامٍ وصلٍ طويلة، حتى كاد يُنسي طولها تذكرنا للفراق الذي سيقع حتماً بعدها، فكأن تلك السنوات الطويلة بسبب ذلك التذكر أياماً!

(١) هو حبيب بن أوس الطائي، أسلمَ وكان نصرانياً. من فحول الشعراء، كان أسمر، طوالاً فصيحاً، عذب العبارة مع تمتمة قليلة، وكان يتوقد ذكاء، سمع به المعتصم فطلبه وقدمه على الشعراء، وله فيه قصائد من أشهرها البائية في فتح عمورية. وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة، وقد كان الشاعر البحثري يرفع من شأن أبي تمام، ويقدمه على نفسه ويقول: ما أكلتُ الخبز إلا به، وإني تابع له. جمع ديوان «الحماسة» فدل على غزارة معرفته وحسن اختياره. وقيل: كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب.

وقال الأمدى -في تفسيرِ قَصْرِها-: (إنا كنا نذكر الفراقَ فُتْبادِرَ السرور واللذات فكان ذلك يقصّر من طولها، وأيام السرور على كل حال قصار، اعترض فيها خوف الزوال أو لم يعترض، وهذا من مشهور إحسان أبي تمام لفظاً ومعنى)^(١).

ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أَرْدَفَتْ بِجَوَى أَسَى، فَكَانَها أَغْوَامُ
انبرت: اعترضت وحلّت. الجوى: الحرقّة في القلب. أردف الشيءَ بالشيءِ:
أتبعه به.

يقول: حلّت بنا أيام هجر بعد أيام الوصل، وبسبب ما انطوت عليه من الجوى والأسى كأنها أعوام.

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونُ وَأَهْلُها فَكَانَها وَكَانَها أَحْلَامُ
تشبيه الحياة في سرعة انصرامها بالنوم والأحلام كثير عند الشعراء. ومنه قول
التهامي:

فالعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارِي
وقول المتنبي:

نصيبُكَ في حَيَاتِكَ مِنْ حَيِّبٍ نَصيبُكَ في مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ!

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري (١٦٠/٢).

شرح بيتي: (حصاد السنين)

قال أبو نواس^(١) (١٩٨هـ):

ولقد نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدَلُوهُمْ وَأَسْمْتُ سَرَحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَسَامُوا

نَهَزَ الدَّلُو فِي الْبَثْرِ: إِذَا ضَرَبَ بِهَا فِي الْمَاءِ لَتَمْتَلَى. أَسَامَ الْمَاشِيَةَ: أَخْرَجَهَا إِلَى الْمَرْعَى. وَإِضَافَةُ سَرَحَ إِلَى اللَّحْظِ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، يَعْنِي تَرَكْتُ النَّظَرَ السَّارِحَ يَرَعَى حَيْثُ رَعُوا.

وَالْمَعْنَى: شَارَكْتُ الْغَوَاةَ فِي غِيهِمْ، وَبَلَغْتُ غَايَةَ سَعِيهِمْ.

وَبَلَّغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلُّ ذَاكَ أَثَامُ!

عَصَارَةٌ: خِلَاصَةٌ وَنَتِيجَةٌ.

أَثَامُ: جَزَاءٌ وَعَقُوبَةٌ.

مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ: فِي هَذَا الْإِبْهَامِ مَعْنَى لَطِيفٌ جَدًّا يَسْتَحْسِنُهُ الْبَلَاجِيُونَ، وَالْمَقْصُودُ بَلَغْتُ كُلَّ مَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهُ الشَّابُّ مِنَ الْغَوَاةِ فِي شَبَابِهِ.

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: (وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ: «لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ الصِّفِينِ»، فَإِنَّهُ لَوْ وَصَفَهُ مَهْمَا وَصَفَ مِنْ نَجْدَةٍ وَشَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ وَإِقْدَامٍ وَأَطَالَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةٍ

(١) الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ، لُقِّبَ بِأَبِي نَوَاسٍ لَضَفِيرَتَيْنِ كَانَتَا تَنَوَّسَانِ عَلَى عَاتِقَيْهِ -أَي: تَضَطَّرَبَ-. نَشَأَ بِالْبَصْرَةِ، وَرَحَلَ إِلَى بَغْدَادَ، فَاتَّصَلَ فِيهَا بِالْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، شَعَرَ فِي الذَّرْوَةِ، قَالَ شَيْخُهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: كَانَ أَبُو نَوَاسٍ لِلْمُحَدِّثِينَ كَأَمْرِئِ الْقَيْسِ لِلْمُقَدِّمِينَ. وَيُقَالُ: مَا رَأَيْتُ أَحْفَظَ مِنْ أَبِي نَوَاسٍ، مَعَ قَلَّةِ كُتُبِهِ. وَلَهُ تَهْنُكٌ فِي شَعْرِ الْخَمْرِ وَالْغَزْلِ، وَلَهُ أَيْيَاتٌ مَشْهُورَةٌ فِي الْإِنَابَةِ وَالْمُنَاجَاةِ، قِيلَ كُتِبَ فِي آخِرِ عَمْرِهِ.

ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام، وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها، وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. فقوله: «وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه» من هذا النمط المشار إليه، وهو من المليح النادر^(١).
ولكنه لم يحصل من ذلك اللهو كله إلا الحسرة والخيبة!

(١) المثل السائر (٢/١٦٣).

شرح أبيات (أنفة العتاب)

قال معن بن أوس^(١)، وكان قد تزوّج أخت صديقه ثم طلقها، فغضب عليه وهجره، فقال معنُ هذه الأبيات يعاتبه بها ويستلطفه:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينما تعدو المنية أولُ

لعمرك: العمرُ الحياة، يُقسَمُ بحياة المخاطب على عادة العرب في ذلك.

وإني لأوجلُ: الوجَلُ الخوف والقلق، أي وإني لخائفٌ قلق، وهذه الجملة اعتراضية.

تعدو المنية: ينقضُّ الموت.

يقول: وحياتك إني لا أدري على أيِّ واحدٍ منّا يهجمُ الموت أولاً، وإني لخائفٌ قلقٌ من ذلك.

وإني أخوك الدائم العهد لم أحل إن ابزأك خصمٌ أو نبا بك منزل

لم أحل: لم أتغيّر.

ابزأك: أثقلك وغلبك.

(١) هو معن بن أوس المُرَنِّي، شاعرٌ مجيد فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. له مدائح في بعض الصحابة. وكان معاوية -رضي الله عنه- يفضّله ويقول: (أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس). رحل إلى الشام والبصرة. وكُفِّ بصره في أواخر أيامه. مات في المدينة عام ٦٤ هـ. وهذه الأبيات من مختار أبي تمام في «ديوان الحماسة» والبصري في «الحماسة البصرية».

نبا بك: ألجأك إلى التحول عنه.

يقول: وإني أنا أخوك الذي لم تنقلب مودته، ولا انتقض عهده، أنصرك إن تكالبت عليك الخصوم، وأوسع لك إن ضاقت المنازل.

أحارب من حاربت من ذي عداوة وأحبس مالي إن غرمت فأعقل

مالي: إبلي، وإذا أطلقت العرب (المال) فإنها تريد الإبل غالباً.

فأعقل: أتكفل بالدية، والعقل الدية.

يقول: أحارب معك من أعدائك من تحارب، وأدافع عنك من الناس من تدافع، ولا أسلمك إلى ثقل الديون، وغرامة الجنايات، بل أجعل مالي كله فداءً لذلك، وأحرص على تجنبك من الردى والمهلك.

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني يمينك، فانظر أي كف تبدل

يقول: لئن عزمت على صُرمي وهجري، وأزمت على قطيعتي ومجافاتي؛ فإنك لن تضر إلا نفسك، وكأنما - إذ تقطعني - تقدم على قطع يمينك! فانظر هل لك عنها من عوض؟

وفي الناس إن رئت جبالك واصل وفي الأرض عن دار القلى متحول

رئت جبالك: بليت وضعفت.

القلى: البغض.

يقول: وإنك تعلم أن الناس غيرك كثير، فإذا بليت جبال مودتك وكادت تنقطع فما زال لي في وصال الناس جبال وثيقة، وإذا ضاقت بي دارك ففي الأرض متسع لي عن دار أكون فيها مبعوضاً ممقوتاً.

إذا أنت لم تنصِف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلُ
ويركب حدَّ السيف من أن تضيِّمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحلُ

الهجران: المجافاة والهجر، وهو بكسر الهاء لا غير.

يركب حدَّ السيف: هذه كناية يُراد بها الوقوف على مشارف الهلاك وموارد
الخطر.

تضيِّمه: تظلمه وتذله.

مزحل: منتقل ومتحوّل.

يقول: إذا أنت لم تعرف لأخيك قدره، ولم تُعط صاحبك حقّه؛ وجدته عنك
متجافيا، وألفيته منك متباعدا، هذا إن كان له عقلٌ يحكمه، ومروءةٌ تمنعه، وتراه يرد
موارد الخطر، ويُشرف على مواطن الهلاك، كلُّ ذلك أنفةٌ من أن يُظلم، وامتعاضا
من أن يُهان، فإنَّ الكريم يأنف المقام بمنزل الذلة والضيِّم.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ آخر الدهر تُقبلُ

يقول: إذا أشحتُ بوجهي عن شيءٍ وصرفتُ قلبي عنه، فلا تكاد تراني راجعا
إليه، ولا تُبصرني عابئا به، بل تجدني معرضا عنه، زاهدا فيه، فإنَّ لي نفسا كريمةً
عزيزةً إذا عافت الأمر فارقتَه فراق غيرٍ وامق.

شرح بيتي: (المناظر المتعبة)

قال أحدهم^(١):

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

الرائد: الذي يتقدم القافلة ليتأمل حال الماء والكلاء. وجعل العين رائدا للقلب لأن القلب يتبع ما تراه العين فيستحسن ما تستحسن ويكره ما تكره.

والمعنى أنك إذا أرسلت العين وأطلقت جماحها وجعلتها كالرائد المستطلع للقلب، فإن المناظر سترهقك لأن القلب تابع، والبصر قائد.

قال ابن القيم: (العين رائد القلب، فيبعث رائده لنظر ما هناك فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقا إليه، وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده)^(٢).

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

وهذا البيت تفسير للتعب المذكور في البيت السابق، والمعنى: إذا أطلقت طرفك رائدا لقلبك أتعبتك المناظر لكونك سترى ما لا تقدر على الوصول إليه، وما لا تقدر على الصبر عنه، وإنما غاية ما تحصل من ذلك الإطلاق أنك ستوقع نفسك في رهق وحسرة.

وقال بعضهم:

أَلَا إِنَّمَا الْعَيْنَانِ لِلْقَلْبِ رَائِدٌ فَمَا تَأْلَفُ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ يَأْلَفُ

(١) من أشعار ديوان الحماسة دون نسبة.

(٢) إغائة اللهفان (١/ ٧٥).

وقال المتنبي مصورًا أن من يطلق بَصْرَه فهو قَتِيلٌ قاتِلٌ في آن:
وأنا الذي جَلَبَ المنيّة طرفُهُ فَمَنْ المَطالِبُ والقَتيلُ القاتِل؟

شرح أبيات: (فليتق الله سائله)

قال أبو تمام الطائي^(١):

هُوَ الْيَمُّ مِنْ أَيِّ النُّوَاحِي أَتَيْتَهُ فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
الْيَمُّ: الْبَحْرُ لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ.

يقول عن ممدوحه بأنه كاليم من أي النواحي أتيتَه، وأعماقُ هذا البحر المعروف، وسواحلُ هذا البحرِ الجود.

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّه ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنْامِلُهُ

اعتاد مدَّ الكفِّ بالعطاء طيلةَ دَهْرِهِ، وبلغ به الحال لطول الإلف والاعتیاد أنه لو حاول ثني أنامله وأراد أن يقبضها لاستعصت عليه ولم تطاوعه، لأنها تعودت المدَّ والبسط والعطاء.

وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا، فَلَيْتَقَى اللَّهَ سَائِلُهُ

ليتق الله سائلُ هذا الرجل الكريم! فإنه سيعطيه ما كان في يده وإن غلا ثمنه، ولو لم يكن في يده غيرُ روحه التي بين جنبيه لجاد بها.

(١) تقدمت ترجمته قريبا.

شرح أبيات: (والمنايا رَصَدٌ)

كان السُّلَيْكُ بن عمير التميمي أحدَ صُعاليك العرب العدائين، وكان شاعرا فاتكا، يلقب بالرُّبَال، فخرج ذات يومٍ فَقَتَلَهُ رجلٌ من خَثْعَم. فقالت أمه السلَكة ترثيه:

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةً مِنْ هَلَاكِ فَهَلَكُ

يبغي: يريد ويطلب. النجوة: النجاة.

تقول: خرج يبغي النجاة من كل هلاكٍ، فكان هلاكه في خروجه.

لَيْتَ شِعْرِي ضَلَّةً أَيْ شَيْءٍ قَتَلَكَ؟

ليت شعري: ليت علمي، أو ليتني أعلم.

ضلة: ضلالة.

تقول: ليتني أعلم، فأنا ضللت ضلالة عن العلم بسبب موتك، فيا ترى أي سبب كان وراء قتلك؟!

أَمْرِيضٌ لَمْ تُعَذِّمْ أَمْ عَدُوٌّ خَتَلَكَ؟

ختلك: خدعك، وقتلك غيلة.

ودخلت الأم المسكينة بهذا البيت في بيان قولها: أي شيء قتلَكَ؟ وذكرت بعض الاحتمالات التي ربما كانت وراء قتله. فتقول:

هل كنت مريضاً لم يعذك ولم يتفقذك أحد؟ أم اغتالك عدوٌ غدراً وخديعة؟

كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكَ

أرادت بهذا البيت الإعراض عن الاسترسال بذكر الأسباب، فانتقلت إلى بيان أن أسباب الموت واحدة إذا انقضى العمر المقدّر، وأن كل سبب قاتل إذا حان الأجل المحتوم.

وَالْمَنَايَا رَصَدٌ لِلْفَتَى حَيْثُ سَلَكَ

المنايا جمع منية وهي الموت.

تقول بأن المنايا للفتى بالمرصاد أينما ذهب، فالطواف في فضاء الله والتحول في البلدان وابتغاء النجاة لا يدفع الموت قيد أنملة إذا حان الأجل.

لَيْتَ قَلْبِي سَاعَةً صَبْرَهُ عَنْكَ مَلِكٌ
لَيْتَ نَفْسِي قُدِّمَتْ لِلْمَنَايَا بِدَلِّكَ

ليت قلبي يملك الصبر عنك ولو ساعة من الزمان، أو ليتني كنت افتديتك فقدمت للموت بدل نفسك.

شرح أبيات: (حنكته التجارب)

قال عبد العزيز بن زرارَةَ الكلابي (٥٠ هـ) ^(١):

قَدْ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَارًا عَلَى طُرُقٍ شَتَّى، فَصَادَفْتُ مِنْهُ اللَّيْنَ وَالْفَطْعَا
الْفَطْعُ: الشَّدَّةُ.

والمعنى عشتُ في دهري أطواراً على طرق مختلفة، فصادفت أياً ما رغبة لينة،
كما عشتُ أياً ما شديدة قاسية.

كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعُتُ مِنْ لَأْوَائِهِ جَزَعَا
بلوت: جَرَّبْتُ وَخَبَّرْتُ. البَطْرُ: الطغيان بالنعمة. اللأواء: الشدة والبؤس.

والمعنى عرفتُ كلا الحالين من لين وشدة، فلم تُبطرنِي النعماء سَفَهًا، ولا
كسرتني اللأواء جَزَعًا.

لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

يصف شجاعته ورزاقته وصبره، فيقول: بلغ من ثبات قلبي أني أعلم أن الهول
سيقع، ومع ذلك لا يملأ قلبي الخوف والقلق قبل نزوله، ثم بلغ من صبري عليه أني
لا أضيق به ذرعاً بعد حلوله، فأنا في الحالين معتصم بالصبر والثبات والرضا، وأكثر
الناس يخافون من الهول قبل وقوعه، ويضيقون به ذرعاً بعد حلوله.

(١) هو عبد العزيز بن زرارَةَ الكلابي قائد شجاع في زمن معاوية رضي الله عنه كان فيمن غزا القسطنطينية،
وأبلى في قتال الروم البلاء العجيب، ولم يزل يتعرض للشهادة فلم يقتل، فأنشأ ينشد هذه
الآبيات المنتخبة: (قد عشت في الدهر..)، ثم حمل على من يليه فقتل فيهم، وانغمس بينهم،
فشجره الروم برماهم حتى قتلوه، فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: هلك والله فتى العرب!

شرح أبيات: (وتقتلنا المنون بلا قتال)

قال أبو الطيّب المتنبّي (٣٥٤ هـ)^(١) قصيدةً في رثاءِ والدَةِ سَيْفِ الدولة، ومنها:

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالٍ

المشرفية: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: المنية.

يقول: نعد السيوف والرماح للنزال والقتال، ولكنَّ المنية تخترق الأسوار وتتجاوز هذا التحصين والاستعداد منّا فتقتلنا على حين غفلة، وذلك من غير قتال ولا مدافعة.

نَصِيئُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيئُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالٍ

نصيب الإنسان من وصال حبيبه في حياته كنصيبه من وصال خياله وأحلامه في منامه، فكما ينقطع الخيال والحلم باليقظة، ويذهب كأن لم يكن، فوصال الحبيب ينقطع أيضًا بالموت ويذهب كأن لم يكن.

وهذا البيت يذكر العامة معناه كثيرا في عصرنا، فتجدهم يقولون عن لحظاتهم الجميلة الفائتة: مرت كأنها حلم. وهو يشبه بيت أبي تمام -وهو من مختارات القلادة-:

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونُ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نُبَالٍ

الأرزاء: جمع رزء وهو المصيبة. الغشاء: ما يغطي الشيء ويستوعبه. والنبال:

(١) تقدمت ترجمته.

السهم.

يقول: كأن قلبي من توارد المصائب عليه صار مُحاطًا بغشاء من سِهام.

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ

النصال: جمع نصل، وهو الحديدة التي في السهم.

يقول: فصرتُ الآن إذا أصابتني مصائب جديدة لم تجد موضعًا تنفذ منه إلى فؤادي، وإنما أُمست النصال اللاحقة تتكسر على النصال السابقة.

وأشار الواحديُّ إلى معنى لطيف وهو معنى أن المصائب لما كثرت عليه تساقطت. فقال -في شرح البيت-: (هذا تمثيل معناه أن الأرزاء توالى علي حتى هانت عندي، والشيء إذا كثر اعتاده الإنسان كما صرح بذلك المتنبي في البيت التالي)^(١).

وَهَانَ فَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي

هان: خفَّ.

قيل معناه: هان عليَّ الدهر وما يقع فيه. وقيل: هان عليَّ ما ألقاه، فأضمِر الفاعل.

يقول: خف علي الأمر وصبرت وسلوت، فلا أبالي وأقلق من المصائب قبل وقوعها، ولا أجزع عند نزولها، لأنني ما انتفعت بما باليتُ به قبل ذلك، فلم تدفع المبالاة والاهتمام عني شيئاً من المقدور، ومنه قول بعضهم:

صبرت فكان الصبر خير مغبة وهل جزع أجدي عليَّ فأجزع

(١) شرح ديوان المتنبي للواحدي (١/١٩٦).

وقد ذكر المتنبي هذا المعنى في قصيدة أخرى، فقال:

لا تلقِ دهرَكَ إلاّ غيرَ مكتَرٍ ما دامَ يصحبُ فيه رُوحَكَ البدنُ
فما يَديمُ سرورُ ما سررتَ به ولا يردُّ عليك الفأنتُ الحزنُ

شرح بيتي: (لَسْتُ المَلُومَ)

وقال المتنبي أيضا:

أبعين مفتقر إليك نظرتني فأهتنتني، وقذفتني من حالق
لست المَلُومَ، أنا المَلُومُ لأنني أنزلتُ آمالي بغير الخالق

الحالق: المكان المشرف المرتفع.

يقول: هل هان عليك شأني حين نظرتني مفتقرا إليك؟ فأهتنتني وخذلتني ولم تقض حاجتي، وقذفتني من مكان مرتفع حتى تحطمت آمالي على صخرة الخذلان؟! كلا! لست الملامة عليك في شيء من ذلك، وإنما أنا المَلُومُ لأنني علقتُ حبال آمالي بغير خالقي سبحانه وتعالى.

وهكذا لا يركن العبد إلى المخلوق ويعتمد عليه إلا ويُخذل من جهته، وسائلُ الله تعالى لا يُخذل ولا يخيب!

ذكر محمد بن عمر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب تجربته في هذا الشأن فقال: (الذي تجربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببا إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحدٍ من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابعة والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه)^(١).

(١) مفاتيح الغيب (١٨/١٤٥).

وقال الصرصري:

تعلّق بالرب الكريم رجاؤه	إذا انقطعت أطماع عبد عن الوري
على وجهه أنواره وضياؤه	فأصبح حُرّاً عِزَّةً وَقَنَاعَةً
تباعد ما يرجو وطال عناؤه	وإن علقت بالخلق أطماع نفسه
ولو صحّ في خلّ الصّفاء صفاءؤه	فلا ترجُ إلا الله للخطب وحده

شرح أبيات: (تزاحم الأضداد)

قال أبو العلاء المعري^(١) (٤٤٩هـ) في رثاء أحد الفقهاء الأحناف:
(بحر الخفيف)

صاح هَذي قُبورُنا تملأ الرُّخـ بَ فأينَ القُبورُ مِن عَهْدِ عادِ

صاح: يا صاحبي. يدعو صاحبه، وحذف حرف النداء، ورخم الصاحب.

الرُّخْب: بضم الراء. المكان المتسع.

والمعنى: يا صاحبي إذا كانت قبورنا تملأ المكان المتسع، فأين قبور السابقين قبلنا؟ فلا بد أنها اندرست واختلطت ببعضها.

خَفَّفِ الوِطءَ ما أَظُنَّ أَديمَ الـ أَرَضِ إِلَّا مِن هَذهِ الأجسادِ

الوطء: مشيك على الأرض. أديم الأرض: الأديم الجلد. والمقصود ظاهر الأرض.

يقول: خَفَّفِ مشيك وسعيك على الأرض فما أظنك تمشي إلا على أجسادٍ

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، الأعمى، أضرب بالجدري وله أربع سنين وشهر. صاحب التصانيف المشهورة في اللغة والأدب، كان ذكيا تام القريحة. قيل: يحفظ كل ما مرَّ بسمعه. لازم بيته، وسمى نفسه: رهين المحبسين للزومه منزله، وللعمى. وكان نباتيًا لم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. قال الذهبي: كان قنوعا متعففا له وقف يقوم بأمره، ولا يقبل من أحد شيئا، ولو تكسب بالمديح، لحصل مالا ودنيا، فإن نظمته في الذروة، يعدُّ مع المتنبي والبحري. اتُّهم في إيمانه ومعتقدِهِ، وفي شعره وترجمته ما يعضد ذلك، فلعله مرَّ بمرحلة تردد وشك ثم رَجَعَ. ذُبَّ عنه بعض المعاصرين. انظر: «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر، و«أبو العلاء وما إليه» لعبد العزيز الميمني.

سالفه دَارِسَة.

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأُضْدَادِ

اللحد: الشَّقُّ في جانب القبر.

يقول: رُبَّ لَحْدٍ يضحك ويتعجب من اجتماع الأضداد كالأبرار والفجار فيه على مَرِّ الزمن.

تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْبَى جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ

تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ: تقديره: الحياة كُلُّهَا تَعَبٌ.

وليس الوزنُ الشعري وحده هو الذي جعل المعرِّي يقدِّمُ التَّعَبَ في صدر بيته، ويؤخر المبتدأ، ففي هذا التقديم اللطيف معنى مراد يستشعره السامع في تأكيد معنى التعب والكبد في هذه الحياة. وتأمل الفرق بين قولك: الحياة كُلُّهَا تعب. وقولك: تَعَبٌ كُلُّهَا الحياة!

ومعنى البيت: الحياة كلها تعب، فما أشد تعجبي من أحوال الراغبين في الزيادة منها المتعلقين بها، فهم في حقيقة سعيهم لا يستزيدون إلا من التعب.

إِنَّ حُزْنَآ فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ

مقدار الحزن على الإنسان في ساعة موته لا يعدل ولا يساوي مقدار السرور به في ساعة ميلاده.

ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ إِلَـ حِسْمٌ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ الشَّهَادِ

الضَّجْعَةُ: المرة الواحدة من الاضطجاع، والضَّجْعَةُ: هيئة الاضطجاع. الشَّهَادُ: الأرق.

شبه الموت بحال النوم. وشبه العيش باليقظة. وفي تشبيهه هذا مخالفة لما يذكره بعض الشعراء من تشبيههم العيش بالنوم، والموت باليقظة. وذلك نحو قول التهامي: (فالعيش نوم والمنية يقظة)، وما يُنسب لسهل التستري ولغيره: (الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا)، وقد مرّ بنا في هذه المختارات نظائر لهذا.

وليس في هذا التشبيه من أبي العلاء إنكارٌ لعذاب القبر كما قد يُتوهم أو يسبق إلى الذهن، فقد قال تعالى عن الكفار: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرُّقاد.

وقد قال أبو العلاء قبل هذا البيت:

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

شرح بيتي: (فيا حجر الشخذ)

قال ابن تومرت^(١) (٥٢٤هـ):

أَخَذْتَ بِأَعْضَادِهِمْ إِذْ وَنَوَا وَخَلَّفَكَ الْقَوْمَ إِذْ أَسْرَعُوا

حين شَعَرَ الناس بالوْنَى والتعب في طريق السير إلى الله أخذت بأعضادهم، وأحييت همّتهم، وأعتّهم على استئناف المسير، ووصفت لهم الطريق، وحين سَلَكَوا درب الهداية الذي وصفته لهم، وَجَدُوا في السير فيه سبقوك وتركوك خلفهم.

وَأَضْبَحْتَ تَهْدِي وَلَا تَهْتَدِي وَتُسْمِعُ وَغَظًا وَلَا تَسْمَعُ
فَيَا حَجَرَ الشَّخْذِ حَتَّى مَتَى تَسْنُ الْحَدِيدَ وَلَا تَقْطَعُ

حَجَرَ الشَّخْذِ أَوِ الْمَسْنِ: يُسْنُ به الحديدُ من السَّكِينِ وغيرها.

يقول: أَشْبَهْتَ حَجَرَ الشَّخْذِ حين أصبحت تهدي الآخرين وتصف لهم طريق الفلاح دون أن تسلكه. ووجه الشبه أن حجر الشخذ يُسْنُ القواطع من الحديد دون أن يَقْطَع، وأنت تهدي الآخرين دون أن تهدي نفسك.

(١) محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي خرج بالمغرب، ادعى أنه علوي حسني، وأنه الامام المعصوم المهدي، وسفك الدماء، أخذ عن أبي حامد الغزالي، وأبي بكر الطرطوشي، قال الذهبي: كان أماراً بالمعروف، نهاء عن المنكر، قوي النفس، زعراً شجاعاً، مهيباً قوالياً بالحق.. وبكل حال، فالرجل من فحول العالم، رام أمراً، فتم له، وربط البربر بادعاء العصمة، وأقدم على الدماء لإقدام الخوارج، ووجد ما قَدَّمَ.

شرح أبيات: (زُخْرَفُ الْقَوْلِ)

قال ابن الرومي^(١):

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينُ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَغْتَرِيهِ سُوءُ تَغْيِيرِ

زخرف القول: القول المزين المموه المحسن.

والمعنى: في تزيين القول وزخرفته تزيين للمعاني الباطلة المتضمنة فيه، والحق قد يعتري أصحابه سوء تعبير عنه.

وأراد ضرب مثال لزخرف القول، فقال:

تَقُولُ: هَذَا مُجَاغُ النَّحْلِ تَمْدُحُهُ وَإِنْ ذَمَّمْتَ تَقُلْ: قِيءُ الزَّنَابِيرِ

المُجَاغ بضم الميم الرقيق الذي يمجه الإنسان من فيه. يقال: المطر مُجَاغ المزن، والعسل مُجَاغ النحل.

الزناوير هي الدبابير وواحد الزناوير: زنبور، وهو حشرة معروفة تشبه النحلة.

قال الدُميري في حياة الحيوان: (ربما سميت النحلة زنبورا)^(٢). فعلى هذا يحمل معنى البيت، وهو أنه حين أراد مدح العسل وتزيينه في النفوس شبهه بمُجَاغ النحل، وحين أراد ذمه وتقييحه شبهه بقيء الزنبور، وحقيقة العسل واحدة لم تتغير إلا في هذا الزخرف من القول.

مَدَحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزَتْ وَصَفَهُمَا حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) حياة الحيوان الكبرى (١٣/٢).

مدحا في العبارة الأولى حين قال: مجاج النحل. وذمّا في الثانية حين قال: قيء الزنابير. ولم يتجاوز في العبارتين هذين الوصفين، والحقيقة واحدة.

وعلى العاقل أن ينتبه لهذا الجانب حين يحكم على الأقوال المنقولة، فكم من قول باطل قبلته النفوس لعرضه بقلب جميل وصورة مقبولة، وكم صواب مجّته النفوس لعرضه بقلب قبيح وصورة ممجوجة، ولذلك يقول ابن القيم -رحمه الله-: (إذا أردت الاطلاع على كُنه المعنى هل هو حقٌّ أو باطلٌ فجردّه من لبّاس العبارة)^(١)، وذكر أبو حامد الغزالي -رحمه الله- أن أقلّ درجات العالم مما يتميز به العامي أن العالم (لا يعاف العسل، وإن وجدته في محجمة الحجام)^(٢)، والمقصود العناية بتمييز الحقائق وتوخي العدل في الحكم عليها، وعدم التأثر بالقوال الخارجية.

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣٩٧).

(٢) المنقذ من الضلال (١٥٥).

شرح بيتي: (فضل التآني)

وقال ابن الرومي كذلك:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضَجَةٍ وَلِلْبَدِيَّةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحٍ

الروية: إشباع الرأي والقول وطول النظر فيه. وبديهة القول: ما كان من غير طول تأمل. ويقال للرجل إذ وُصِفَ بسرعة الإجابة في الرأي: بديته كروية غيره.

وَقَدْ يَفْضُلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّهُ عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

يقول: يفضل أقوام نتائج البديهة لعاجلها وقرب ثمرتها، لكن بسبب العجلة لا يكون لما يقولونه أو ينتجونه أثرا باقيا، وإنما هو يمضي وينطفئ مع هبوب الريح بخلاف نار الروية فإنها تدوم، وترك أثرا باقيا.

وقد كثرت مقارنات الشعراء وغيرهم بين الروية والبديهة، فقال الحطيئة:

فهذا بديه لا كتحيير قائل إذا ما أراد القول زوره شهرا!

واجتمع مرة ابنُ مناذر وأبو العتاهية، فقال أبو العتاهية: كم بيتا تقول في اليوم؟ قال: مقدار عشرة أبيات. فقال أبو العتاهية: فأنا أقول مائتين. فقال ابن مناذر: فإنك تقبل من شيطانك نحو:

أَلَا يَا عَتَبَةَ السَّاعَةِ أَمُوتِ السَّاعَةَ السَّاعَةِ

ولو أني أقول مثل ذلك لقلتُ ألوفاً من الأبيات!^(١)

(١) محاضرات الأدباء للأصفهاني (١/ ١١٢).

شرح بيتي: (عَرَضُ مَصُون)

نال أحد الشعراء من الشاعر علي بن الجهم بحضرة الخليفة المتوكل وهجاه بأشعار باردة فلم يجبه، ثم قال علي بن الجهم^(١) فيما بعد (٢٤٩هـ):

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبِّهُهُ بَلَاءٌ عَدَاوَةٌ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينِ

الحَسَبُ: الفِعَالُ الجميلة للرجل وآبائه. وقال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان في الإنسان وإن لم يكن لآبائه شرف، ورجل حسيب كريم بنفسه. فَقَصَرَهَا على شرف أفعال المرء وإن لم يكن لآبائه شرف.

يقول: من أعظم البلاء أن تعادي رجلا لا دين له ولا حسب، وكونه أعظم البلاء لأن هذا الرجل:

يُبِيحُكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ يَصْنُهُ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضِ مَصُونٍ

أصل الرتع: الرعي في المرعى الخصب.

والمعنى أنه بالعداوة أباحك وأحل لك عِرْضَهُ غير المصون بالدين والحسب،

(١) علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، رقيق الشعر، من أهل بغداد، كان قريبا من المتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، وكتب إلى طاهر بن عبد الله أنه إذا ورد عليه صلّبه يوما، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر، ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهاراً كاملاً، فقال في ذلك قصيدة مطلعها:

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الـ لاثنين مغمورا ولا مجهولا

نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم شرفا وملء صدورهم تبجيلا

وله القصيدة الدالية المشهورة في الحبس. خرج مرة يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وجرح ومات من جراحه.

وأنت حين عاديتَه وقاولتَه فتحت على نفسك الطريق ليأكل من لحمك، ويرتع في
عرضك المصون بالدين والحسب، فأنت الخاسر في مخاصمتَه.
وهذا ما يجنيه الإنسان الفاضل من مجادلة الجاهل ومقاولتهم ومشاتمتهم،
والعاقل يختار أعداءه الذين يردُّ عليهم كما يختار أصدقاءه.

شرح أبيات (عفو المقتدر)

قال عبدالله بن الربيع الحارثي^(١):

لن يبلغ المجد أقوامٌ - وإن شُرُفُوا - حتى يذلُّوا - وإن عزُّوا - لأقوامٍ

يقول: لن يستطيع أحدٌ أن يرتقي في درجاتِ المجد - ولو كان شريفاً جليلاً -
القدر - إلا إذا أصابه بعضُ الذلِّ في طريقه، وذلك من جهة السفهاء أو الحمقى أو
الحساد، والمقصود صورة الذلِّ لا حقيقة الذلِّ، فيصيبه شيء من ذلك في الظاهر
وهو عزيزٌ مكرَّمٌ في نفسه!

ويُشتموا فترئى الألوانَ مسفرةً لا صفحَ ذلٍّ ولكن صفحَ أحلامٍ

مُسفرة: مُشرقة.

صفح: الصفح ترك اللوم والمؤاخذه.

يقول: ولن يبلغوا المجدَ كذلك حتى يتسلط عليهم السفهاء بالشتم والإهانة،
فترئى وجوههم مشرقةً ضاحكة كأنَّ شيئاً لم يكن! ثم لا يكون امتناعهم عن رد السَّفه
والشتم لضعفهم أو لخوفهم، بل هم مقتدرون يصفحون عن حلم، ويعفون عن
مقدرة، (ولن يستوجب أحدٌ الحلمَ إلا مع القدرة) كما قالت العرب^(٢).

(١) هو عبدالله بن زياد بن الربيع بن زياد الحارثي، شاعر عباسي، وجدُّه الربيع من صحابة رسول
الله صلى الله عليه وسلم، والقطعة في غالب المصادر المتقدمة ليست منسوبةً لشخص
بعينه، وذكر الثعالبي في اللطائف والطرائف أن هذه القطعة: (أحسن ما قيل في الحلم)!
(٢) العقد الفريد (١٩/٢).

شرح أبيات (الشرُّ يبدؤه صفارُه)

قال شبيب بن البرصاء^(١):

وإني لتَرَّاكَ الضَّغِينَةَ قد بدا ثراها من المولى، فما أَسْتِثِرُها

تَرَّاكَ: كثيرُ الترك والاجتناب.

بدا ثراها: ظهر أثرها، وبدت علاماتها.

المولى: في اللغة له معان، وهو هنا بمعنى القريب.

أَسْتِثِرُها: أنقب عنها وأنبش.

يقول: وإني كثيرا ما أجتنبُ الأحقاد وأحتملُ الأذى، وأحجمُ عن الشرِّ من قريبي، وأتغافل عنه حتى وإن بدت آثاره منه، وظهرت علاماته عليه! فلا أنقب عن الشر ولا أتتبعه.

مخافة أن تجني عليّ، وإنما يَهيجُ كبيراتِ الأمور صغيرُها

تجني عليّ: تجرّ عليّ سوءًا.

يَهيجُ: يُثير ويُشعل.

يقول: وإنما أفعل ذلك الاجتناب للأحقاد، والاحتمال للأذى لئلا يستفحلَ الشرُّ، ويحصل لي ما لا يُحمد عقباه، فإن الشرَّ يبدأ صغيرًا ثم يتعاضم، ومعظم النار

(١) هو شبيب بن يزيد بن جمرة الذبياني، و(البرصاء) أمّه، سُميت بذلك لبياضها، وهو شاعر بدوي أموي فحل، وكان من أشرف قومه وساداتهم، ونُسبت بعض أبيات هذه القطعة لعوف بن الأحوص كما في المفضليات.

من مُسْتَصْغِرِ الشرر، وقد قالت العرب: (الشرُّ يبدؤه صغارُه)، وقال طرفة (قد يبعثُ
الأمرَ العظيمَ صغيرُه)^(١).

تَبَيَّنُ أَعْقَابُ الْأُمُورِ إِذَا مَضَتْ وَتُقْبَلُ أَشْبَاهَا عَلَيْكَ صَدُورُهَا

أعقاب الأمور: أواخرها ونهايتها.

صدورها: أوائل الأمور وبدايتها.

يقول: إن الأمور لا تستبين إلا في خواتيمها ونهاياتها، فإذا انقضت وولَّتْ
اتضحَت معالم الصورة كاملة، أما أوائل الأمور وبداياتها فتكون دائماً مشتبهةً ملتبسةً
تغرّ الناظرين.

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١٩٥٣)، وديوان طرفة بن العبد (١٢).

شرح أبيات (إقدام على بصيرة)

قال مضرّس بن ربيعي الأسدي^(١):

إياك والأمر الذي إن توسّعت موارده ضاقت عليك المصادر

إياك والأمر: أسلوب تحذير، أي احذر من الأمر.

موارده: الموارد جمع مَوْرِد، وهو موضع الماء الذي يأتيه الناس ويردونه، ثم استعير لكل ما يُقبل عليه الإنسان من أمر.

المصادر: جمع مَصْدَر، وهو الموضع الذي يرجع منه الناس بعد سقيهم ويصدرون عنه، ثم استعير لكل ما يخرج منه الإنسان من أمر.

يقول: احذر أن تأتي أمراً وأنت ترى مدخله سهلاً واسعاً، لكنّ مخرجه وعرضه ضيق، فإن من الحزم أن لا تقبل على أمر إلا وقد خبرته وعلمته، لا أن تتفحم الأمور على عمى. وأحزم الناس من لو مات من ظمياً لم يقرب الورد حتى يعرف الصّدراً

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

يقول: فإنه يقبح بالمرء أن يكون فيما يقتحمه من الأمور عند نفسه معذوراً، وعند الناس ملوماً، وما جدوى إعدار المرء نفسه!

(١) هو مضرّس بن ربيعي بن لقيط الأسدي، شاعر إسلامي، وكان حسن التشبيه، حاضر البديهة، وإليه تُنسب القصة المشهورة مع الفرزدق، وذلك أنه بلغ مضرّساً أن الفرزدق هجا بني أسد، فقدم البصرة وأخذ يهجو الفرزدق، فجاء الفرزدق حتى قام عليه فقال: من أنت؟ فقال مضرّس: أسديّ أنا، فقال الفرزدق: لعلك ضريس، قال: أنا مضرّس، فقال الفرزدق: إن شعرك بي لشبيه، فهل وردت أمك البصرة؟ فقال: لا، ولكن وردها أبي! فسكت الفرزدق.

شرح أبيات (إحدى النوائب)

وقال ابن الرومي^(١):

وزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطَوَّلُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ

يقول: لقد زهدتُ من الناس، ولم يكن زهدي هذا إلا عن معرفة عميقة بأحوالهم، وامتحان دقيق لطباعهم، فكم اختبرتُ من صاحب تلو صاحب! ومع ذلك لا تزيدني الأيام والتجارب إلا زهدًا بالناس.

فَلَمْ تَرْنِي الْأَيَّامُ خِلًّا تَسْرُنِي بَوَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ

يقول: فما أرتني الأيام صديقًا يسرني ظاهره، وتغرني أوائله، إلا انكشف بعد ذلك على حقيقته، وكشّر لي عن أنيابه.

وَلَا قَلْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلْمَةٍ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى النِّوَائِبِ

الملّمة والنائبة مترادفتان، ومعناها حوادث الدهر ومصائبه ونوازله.

يقول: ولا قلتُ سأستعين به في نازلة من نوازل الدهر وأدفع به عني مصيبة من مصائب الزمان، إلا كان هو مصيبة عليّ من حيث لم أحسب!

وهذه الأبيات تشبه قطعة ابن الرومي نفسه:

تَخَذْتُكُمْ دُرْعًا وَتَرَسًا لَتُدْفَعُوا نِبَالَ الْعِدَا عَنِّي، فَكُنْتُ نَصَالَهَا

(١) تقدمت ترجمته.

وتشبه كذلك قول الشاعر:

وَإِخْوَانٍ حَسِبْتُهُمْ دُرُوعًا فَكَانُوا وَلَكِنِ لِلْأَعَادِي!
وَحِلَّتُهُمْ سَهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَانُوا وَلَكِنِ فِي فِؤَادِي!

وهذه الحال السوداوية المتشائمة غلبت على مزاج كثير من الشعراء والأدباء،
فكثرت هذه المعاني في أشعارهم إلى الغاية.

شرح بيتي (حظوظ)

قال المعلّوط القرّيعي^(١):

وليس الغنى والفقر من شيمة الفتى ولكن أحاط قسّمت وجدود

شيمة الفتى: يعني اكتسابه وجهده.

أحاط: جمع حظّ، يُقال حظوظ وأحاط.

جدود: جمع جدّ وهو الحظّ كذلك.

يقول: ليس الغنى والفقر مما يستطيعه الإنسان بكسبه وجهده وسعيه فقط، ولكنها مواهب وأرزاق يقسمها الله على من يشاء من عباده.

وعطفَ (أحاط) على (جدود) مع اتفاقهما في المعنى تنويعاً في الكلام وزيادة في البيان، وهو أسلوب عربي فصيح، ومنه ﴿أمر جاءهم مألوفاً رأوا أبناءهم﴾ [المؤمنون: ٦٨]، والمجيء والإتيان واحد.

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد

أعيته: أتعبته واستصعبت عليه.

المروءة: إتيان ما يزين من المحاسن، وترك ما يشين من المساوئ.

ناشئاً: فتى صغيراً.

(١) هو المعلّوط بن بدّل القرّيعي، من بني قرّيع بن عوف من تميم، شاعر إسلامي مطبوع، وله في الحكمة ومكارم الأخلاق شعرٌ حسن، وتُنسب الأبيات للمخبل السعدي، وكلاهما قرّيعي من بني سعد بن زيد مناة بن تميم.

كهلًا: رجلًا كبيرًا.

يقول: ينبغي للمرء أن يعود نفسه الاجتهاد من صغره، ويربيها على مكارم الأخلاق من نشأته، فإنه إذا لم يحصلها صغيرًا عسر عليه طلبها كبيرًا، وإن حصلها في صغره كانت له شيمَةً وسجية، كما قال المتنبي:

ألف المروءة منذ نشأ فكأنه سقي اللبن بها صبيًا مرضعًا!

شرح أبيات (كنز الصبر)

وقال أبو الحسن الجرجاني^(١):

إذا شئت أن تستقرض المال مُنفَقًا على شهواتِ النفسِ في زمنِ العسرِ
فسل نفسك الإنفاقَ من كنزِ صبرها عليك، وإنظاراً إلى زمنِ اليسرِ
تستقرض: تستدين وتسلف.

يقول: إذا كنتَ في عسرةٍ من أمرك ثم أردتَ أن تستدين المالَ لتُنْفِقَ به على أمورِ رفاهيتك ومطالبِ راحتك؛ فلا تسترسل في شهواتِ نفسك، واسألها أن تُنْفِقَ عليك من الصَّبرِ والتحمّلِ ما تنتظر به إلى زمنِ اليسارِ والغنى.

فإن سمحتَ كنتَ الغنيَّ، وإن أبتَ فكلُّ منوعٍ بعدها واسعُ العُذرِ
أبت: امتنعت.

منوع: شديد المَسعِ والحرمان.

يقول: فإن سمحتَ لك نفسك بالصَّبرِ والتحمّلِ فزتَ بغنى النفسِ والامتناعِ من السؤالِ، وإن امتنعتَ نفسك عن الإنفاقِ عليك من كنوزِ الصَّبرِ فامتناعُ غيرها عن

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، كان من ألباء العلماء وحذاقهم، وقال عنه الثعالبي: (هو فردُ الزمان، ونادرةُ الفلك، وإنسانٌ حدقةُ العلم)، ولاه الصاحبُ بن عباد قضاءَ جرجان، وذكره في رسائله بسعة الأدب وجودة الرأي وحسن التدبير، وهو صاحب الأبيات المشهورة:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحجماً

إقراضك أولى، وكما وجدتَ لنفسِك العُذرَ في الامتناع من الصبر، فجد للناس العذرَ
في الامتناع من إقراضك.

قال الشاعر:

غني النفس يُغني النفسَ حتى يكفُّها وإن أعسرت حتى يُضِرَّ بها الفقرُ
فما عسرةٌ - فاصبر لها إن لقيتَها بدائِمةٍ حتى يكون لها يُسرُ

وقال الآخر:

غني النفس ما استغنَّت غنيُّ وفقر النفس ما عِمِرَت شقاءُ

شرح بيتي (مقالة السوء)

قال محمد بن حازم الباهلي^(١):

ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمُّوه بالحق وبالباطل

يقول: ومن عرّض نفسه لدمّ الناس - بأن طلب منهم كشف معاييه، أو فعل فعلاً يستوجب الذم - فإنهم سيَلْعُون في عرضه، وينهشون لحمه، ويرمون به بأقبح التهم وأبشع المعاييب، حقاً كانت أو باطلاً.

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

يقول: مقالة السوء كالسباب والشتائم تعود على أهلها أسرع من السائل المنحدر، والمراد بأهلها قائلوها والناطقون بها، فأراد أن الوقعة والطعن على الناس بالباطل يعود على قائله، ولا يضرّ من قيل فيه.

(١) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي ولأء، شاعر عباسي مطبوع، كثيرُ الهجاء، ولم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي، وكان دقيقَ المعاني، سلسَ الشعر، قال الشابشتي: (كان يأتي بالمعاني التي تستغلق على غيره) توفي عام ١٩٥ هـ.

شرح أبيات (أقسّم جسمي)

وقال عروة بن الورد^(١):

إني امرؤٌ عافي إنائي شِرْكةٌ وأنتَ امرؤٌ عافي إنائك واحدٌ

عافي إنائي: العافي هو الطالب والمُلتَمِس، يعني من أتاني يسأل طعامي ويطلب كرمي.

شِرْكة: عدةٌ من الناس لا واحد، أي يشاركني طعامي كثيرون.

يقول: إني رجلٌ جواد لا يخلو بيتي من ضيف، ولا أنفرد برزقٍ قطّ، بل طعامي بيني وبين الناس بالشركة، أدعوهم إليه ولا أحجب عنه أحداً، أما أنتَ فرجلٌ شحيحٌ ممسك، لا تأكل إلا وحدك!

أتهزأُ مني أن سمّنتَ؟ وأن ترى بجسمي شحوبَ الحقِّ؟ والحقُّ جاهدٌ

الشحوب: الضعف والهزال.

جاهد: مُتعب.

يقول: أتهزأُ مني لكونك سمّنتَ وكثُرَ لحمُك وطغى شحمُك أما أنا فتراني هزياً نحيلاً! وليس هذا النحولُ بي إلا من إكرام الضيفان والقيام عليهم ومقاسمتهم

(١) هو عروة بن الورد بن زيد العبسي، المشهور بـ(عروة الصعاليك) و(أمير الصعاليك) لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم ويقضي حوائجهم، وكان عروة سيداً جاهلياً مطاعاً، وفارساً شهماً شجاعاً، وهو من أشعر قومه، وكان له من الجود والكرم ما جعل عبد الملك بن مروان يقول: (من قال إن حاتمًا أسمعُ الناس فقد ظلم عروة بن الورد)! توفي ١٥ ق.هـ.

زادي وطعامي، وكذلك الحقُّ والمكارمُ، لا يؤتى أسبابها إلا بمشقةِ الأنفسِ وتعبِ الأبدانِ، ف(الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتالُ)!

أقسَمُ جِسمي في جِسومٍ كثيرةٍ وأحسو قَرَّاحَ الماءِ والماءُ باردُ

قَرَّاحُ الماءِ: الماء الصافي الذي لا يشوبه شيء.

يقول: أؤثر غيري بطعامي وزادي ونفقتي فكأنما أوزعُ جِسمي ولحمي في أجسامهم ولحمهم، لأنني بإعطائهم من قوتي أمنعُ عن نفسي كفايتها وحقها، وأظللُ أحسو الماءَ وهو بارد في الشتاء، والماءُ الباردُ أكثرُ إضعافاً وتأثيراً في الجِسمِ الهزيلِ النحيلِ.

قال أبو فراس الحمداني:

وكيف يُنالُ المجدُ والجِسمُ وادُعُ وكيف يُحازُ الحمْدُ والوفْرُ وافرُ

شرح أبيات (فصير آخره أولاً)

قال محمودُ الورّاق^(١):

يمثل ذو العقل في نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً
لم ترعه: لم تفزعه.

يقول بأن صاحب العقل يوطن نفسه على المصيبة قبل نزولها، فهو متصوّر لعواقب ما يقدم عليه وما يمكن أن يعرض له في العادة، وهو يدرك النتائج بمعرفة المقدمات، وثمره ذلك التوطين أن المصائب إذا حلت بداره لم تفزعه.

رأى الأمر يُفْضِي إلى آخرٍ فصير آخره أولاً

يقول بأن صاحب العقل حين أيقن بأن الأمور ستؤول إلى أمر معين حتمًا، فإنه اعتبر ذلك الأمر الحتمي واقعًا، ووطن نفسه كأنه قد قام وحصل.

(١) محمود بن الحسن الورّاق بغدادى، شاعر مجود، أكثر في شعره من المواعظ والحكم. روى عنه: ابن أبي الدنيا.

شرح بيتي (علم الأباغر)

قال مروان بن أبي حفصة^(١):

زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الأَبَاغِرِ

زوامل: جمع زاملة، وهو البعير الذي يُحْمَلُ عليه المتاع، فشبه حفظه الأشعار دون فهم لها وتمييز جيدها من سقيمها بالأباغر التي تحمل المتاع.

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعِيرُ إِذَا غَدَا بأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

الأوساق: جمع وَسَقٍ، وهو حِمْلُ البعير.

الغرائر: جمع غِرَارَةٍ، وهي وعاء يوضع على ظهر البعير.

الأصل في الغدوّ الذهاب أول النهار، والأصل في الرواح الذهاب بعد الزوال، ثم صارا يستعملان في كل ذهاب ورجوع توسعاً.

يقول بأن هؤلاء يحفظون الأشعار وليس لهم علمٌ بجيدها، إلا كعلم البعير بما غرائره التي يحملها على ظهره. ويروى البيتان: زوامل للأسفار، والأسفار جمع سفر، والسفرُ الكتاب.

(١) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، شعره عالي الطبقة، قال فيه الكسائي: (إنما الشعر سقاء تمخض، فدُفِعَت الزبدة إلى مروان بن أبي حفصة)، كان جدُّه أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم ثم أعتقه، أدرك مروان الخلافة العباسية، ومدح المهدي والرشيد فأجزلوا له العطاء، حتى قيل أنهم كانوا يعطونه على كل بيت مديح ألف درهم، توفي ببغداد سنة ١٨٢هـ.

شرح بيتي (الحق الجميل)

قال لقيط بن زرارة^(١):

أغرکمُ أني بأحسنِ شِمةٍ بصيرٌ وأنی بالفواحشِ أحرُقُ

الشِمة: الخلق والطبيعة.

أحرق: أحرق، وأحرق الحُرق.

يقول: أغرکمُ بي معرفتي بأحسن الأخلاق والشِّم، وجهلي بأضدادها من الفحش والسب واللؤم؟ وهل أطمعکم في ما رأيتم من سمو أخلاقي وسموقها وعدولي عن مجازاتکم بالمثل؟!

وإني تَكُ قد سايبتني فقهرتني هنيئًا مريئًا أنت بالفُحشِ أحرُقُ

إن كان وقع بيننا مسابّة ومشاتمة فغلبتني وقهرتني، فهنيئًا مريئًا لك هذا السبق والانتصار، فأنت أبصر وأجدر به مني، فأنا في هذا الباب أحرق أحرق قليل الخبرة، وإنما أنا بصير بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم.

(١) هو لقيط بن زرارة بن عدس الدارمي التميمي، شاعر جاهلي، كان شريفًا في قومه، كنيته أبو دختوس، وهي بنته، ويقال له: أبو نهشل، كان دينه المجوسية.

شرح بيتي (المنزل الخشن)

قال دِعبِل الخزاعي^(١):

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحزن

البرايا: جمع برية، وتجمع برية على برّيات. والبرية: الخلق.

الحزن: الحزن والحزن خلاف السرور.

يقول: إن أولى الناس بمواساتك وإحسانك ذلك الذي وقف معك وساندك في أيام شدتك وافتقارك.

إن الكرام إذا ما أسروا ذكروا من كان يألُفهم في المنزل الخشن

يقول بأن الكرام إذا انقلبت أحوالهم من الفقر إلى الغنى، ومن الحاجة إلى الكفاية، تذكروا من كان يألُفهم ويرعاهم في أيام حاجتهم وزمن افتقارهم حينما كان مركبهم خشنا، فإنه لمن اللؤم أن ينقلب الإنسان على رفاق دربه ويتنكر على الذين ألّفوه وأحسنوا له لمجرد أنه حصل مالا أو مرتبة من مراتب الدنيا.

(١) هو دِعبِل بن علي الخزاعي، شاعر زمانه، له ديوان مشهور، وكان من غلاة الشيعة، وكان بذيئاً مقذع الهجاء، حتى قيل بأنه هجا قبيلته خزاعة، وهجا خلفاء وقته. قيل بأن صاحباً له لأمه في هجاء الخلفاء، فقال: دعني من فضولك، أنا لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك! يقال: هجا مالك بن طوق، فُدس عليه من طعنه في قدمه بحربة مسمومة، فمات من الغد، سنة ٢٤٦هـ.

شرح أبيات (أحلام الكرى)

قال عمران بن حطان السدوسي^(١):

يأسفُ المرءُ على ما فاتَه من لُباناتٍ إذا لم يقضِها
وتراه فرحًا مستبشرًا بالتّي أمضى كأن لم يمضِها
إنها عندي كأحلامِ الكرى لقريبٌ بعضها من بعضها

لُبانات: جمع لُبانة، واللُبانة هي الحاجة.

الكرى: النوم.

يقول بأن المرء يأسف ويحزن على الحاجات الدنيوية التي فاتته تحصيلها، بينما تراه فرحًا بالأمان التي حصلها، مستبشرًا بالرغبات التي حققها، وحقيقة الحال أن ما حصله المرء من حاجات دنيوية يشبه ما فاتته من بعض الوجوه، فليس للإنسان إلا ما في يده الآن في هذه اللحظة، وكل الشهوات والرغبات تحصل ثم تذهب وتضمحل وتصبح من ذكريات الماضي، فما حصل وما فات يشبه بعضها بعضًا، وكله إذا تخيله المرء كأنه أحلام النوم.

(١) هو عمران بن حطان السدوسي الخارجي، قال عنه الذهبي: من أعيان العلماء، لكنه من رؤوس الخوارج. حدث عن بعض الصحابة، وروى عنه: ابن سيرين، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير. قال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصح حديثًا من الخوارج، ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسان الأعرج. وهذا يصدق على الخوارج الأوائل. قال ابن سيرين: تزوج عمران امرأةً خارجيّة، وقال: ساردها عن مذهب الخوارج، قال: فصرفته هي إلى مذهبها! وروي أنها كانت ذات جمال، وكان عمران دميمًا، فأعجبته يوما فقالت له: أنا وأنت في الجنة، لأنك أعطيت فشركت، وابتليت فصبرت. وفيما يتعلق بموهبة عمران بن حطان في الشعر قال الفرزدق: عمران بن حطان من أشعر الناس. توفي سنة (٨٤هـ).

شرح بيتي (الحب والأذى)

قال أسماء بن خارجة الفزاري^(١) مخاطبًا زوجته:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضِبُ

السَّورَةُ: شدة الغضب.

يقول: خذي المتيسر القريب من طيب أخلاقي وطباعي، ولا تحمليني على لأواء التكلف وعناء التصنع، فإن في أطراح التكلف استدامة للمودة بين الأحباب، سواء كان المخاطب بهذا زوجًا أو زوجة أو صديقًا أو غيره، فالكلفة تمحق الألفة.

وفي التنزيل قال تعالى لنبه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي خذ الفاضل المتيسر من أخلاق الناس وأعمالهم.

وإذا تملككتني سلطة الغضب فدعيني حتى أسكن، فإن الإنسان في حال غضبه ربما أساء سمعًا وفهما، ثم أساء إجابة وردًا، والغضب شعبة من الجنون.

فإنني رأيتُ الحبَّ في القلبِ والأذى إذا اجتمعَا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ!

إذا اجتمع الحب مع الأذى في قلب إنسان، فإن الحب يوشك أن يأخذ متاعه ويعزم على الرحيل ثم ينصرف، فالحب والأذى ضدَّان لا يجتمعان!

(١) هو أسماء بن خارجة الفزاري، وهو ابن أخي عيينة بن حصن أحد المؤلفات قلوبهم، كان أسماء تابعيًا سيد قومه، جوادًا مقدَّمًا عند الخلفاء. زوّجَ أسماءُ ابنةً له فقال يوصيها: يا بنية كوني لزوجك أمةً يكن لك عبدًا، ولا تدني منه فيملكك، ولا تتباعدي عنه فيتغير عليك. توفي سنة (٦٦هـ).

شرح بيتي (نعمة الأذى)

قال أبو الطيب المتنبي^(١):

فارقتكم فإذا ما كان عندكم قبلَ الفراقِ أذى، بعد الفراق يدُ

يقول: فارقتكم فإذا الذي كنت أعتبره أذى قبل فراقكم، أصبحت أعدّه الآن
نعمةً، وقد زاد الشاعر هذا المعنى بيانا في البيت الثاني:

إذا تذكرت ما بيني وبينكم أعانَ قلبي على الشوق الذي أجدُ

إذا تذكرت حالي وأنا بينكم، وطاف بخاطري ما كنت ألقاه منكم من الجفاء،
أعانتني تلك الذكرى على مغالبة الشوق وسهلت علي السلو والنسيان، فكلُّ ما كان
مؤذياً أيام الوصال أصبح نعمةً في أيام الفراق.

(١) تقدمت ترجمته.

شرح أبيات (تَلَفَّتُ الْقَلْبُ)

قال الشريف الرضي^(١):

ولقد مررتُ على ديارهم وطلولها بيدِ البلى نهبُ

الطلول: جمع طلل، والطلل هو ما بقي من آثار الديار.

البلى: الفناء.

يقول: مررت على ديار الأحبة، فما وجدت فيها إلا شيئا من آثار الديار، ويد

الفناء تنهب طلولها نهباً.

فوقفتُ حتى ضجَّ من لُغْبٍ نضوي، ولجَّ بعذلي الركبُ

اللُغْب: التعب.

والنضو: البعير المهزول.

والعذل: اللوم.

الركب: أصحاب الإبل في السفر، وهم العشرة فما فوقها.

يقول بأنه أطلال الوقوف حتى ضجَّ بعيره من التعب، وحتى لجَّ رفاقه في عتابه

ولومه.

وتَلَفَّتْ عيني، فمذْ خَفَيْتُ عني الطلولُ تَلَفَّتَ القلبُ

(١) تقدمت ترجمته.

يقول: تلفت عيني في نواحي الديار، حتى إذا جاوزتها في مسيري، وخفيت
معالمها عن ناظري، انتقل التلفت من العين إلى القلب، فالديار وإن زالت رسومها
عن العين إلا أنها ما زالت ماثلة في القلب، فهو يتجول في أرجائها ونواحيها، وقد أكثر
الشعراء من ذكر التلفت في أشعارهم، ومنه قول الشاعر:

ولما رأيت البشر قد حال بيننا وجالت بنات الشوق في الصدر نزعا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني جمعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وإنما أرادوا به شرح مشاعرهم وبيان أشواقهم والاستعاضة عما فات من
الإقامة في الديار بطول النظر فيها.

شرح أبيات (من الحمام إلى الحمام)

قال أبو الطيب المتنبي^(١):

يقول لي الطبيب: أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طـــــــبـــــــه أني جوادٌ أضـرَّ بجسمه طولُ الحمامِ

الحمام: الراحة.

يقول بأن طبيبي يتوهم أن سبب مرضي دخل عليّ من جهة طعامي وشرابي،
وليس في علم الطبيب أن الذي أضـرَّ بي هو طولُ مكثي وإطالتي الجلوس وترك
الأسفار، كالفرس الجواد يضـرُّ بنشاطه طولُ حبسه.

تعوّد أن يُغبّرَ في السرايا ويدخل من قتامٍ في قتامٍ

السرايا: جمع سرية، وهي جزء من الجيش يسري إلى العدو. والقتام: الغبار.

يقول تعوّد هذا الجواد -ويعني نفسه- أن يثير الغبار في المعارك، ويخرج من
حرب إلى حرب. فهو يصف نفسه بالشجاعة وترك الدعة ومجانبة أسباب الراحة
ومجافاة السكون.

فإن أمرض فما مريض اصطباري وإن أحمم فما حُمّ اعتزامي

أحمم: من الحمى. يقول: إن كان جسمي مريضاً وسكنته الحمى، فإن اصطباري
واعتزامي باقيا على نشاطهما، ولم يتأثرا بعوارض الجسد.

(١) تقدمت ترجمته.

وإن أسلم فما أبقى ولكن سَلِمْتُ من الحِمَامِ إلى الحِمَامِ

الحِمَام: الموت.

يقول: إن سلمت من هذه الحمى، فلن أبقى حيًّا إلى آخر الدهر، وإنما غاية ما يكون أن أسلم من الموت بهذا العارض إلى الموت بعارض آخر، وكما يقول طرفة:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوَلِ المُرْحَى وثنياه باليدِ

شرح بيتي (إعراض كريم)

قال زهير بن أبي سلمى^(١):

وذي خطلٍ في القول يحسب أنه مصيبٌ فما يلُم به فهو قائله
عبأت له حلماً، وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله

الخطل: المنطق الفاسد الكثير المغلوط.

يلُم به: يحضره.

عبأت: جهزت وأدخرت.

بادٍ مقاتله: ظاهرة عيوبه، ومكشوفة مساوئه.

يقول: ورُبَّ رجلٍ كثيرِ الغلط في الكلام سليطِ اللسان وهو يظنُّ أنه مصيب في كلامه جهلاً منه، فإذا ما حضره شيءٌ تكلم به من فوره دون أن يُقلِّبَ نظره في عواقب ذلك، كافأته بحلمي ودفعته بعفوي، وأكرمت نفسي عن الخوض في سفيهه، ولو شئت لأبصر مني ما يكره، فعيوبه كثيرة منشورة، ومساوئه ظاهرة مشهورة.

قال الحماسي:

وكم من لئيمٍ ودَّ أني شتمته وإن كان شتمي فيه صابٌ وعلقمٌ
وللكف عن شتم اللئيم تكرماً أضرُّ له من شتمه حين يُشتم

(١) هو زهير بن أبي سلمى المزني، أحد أشهر شعراء الجاهلية، وصاحبُ المعلقة الميمية المشهورة، وشعره في الحكمة والمدح بديع سيار، وذكره أبو عبيدة في الشعراء الثلاثة المقدمين في الجاهلية.

شرح أبيات (هم منتشر)

وقال كعب بن زهير^(١):

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمرٍ ليس مُدرِكها فالنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ

يقول: لو كنتُ أعجبُ في هذه الحياة من شيءٍ لعجبتُ مما أرى الفتى يسعى ويجتهد في تحصيل مبتغاه إلا أن القدرَ محجوبٌ عنه، فهو لا يعلمُ أيحصل ما يسعى إليه أم تمتنع مطالبه دون ذلك! فيا عجباً من سعي الفتى لأمرٍ لا يجدها، ومطالب لا يُدرِكها، وتراه وإن كانت نفسه واحدةً إلا أن همّه واسعٌ منتشرٌ!

والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

يقول: والإنسانُ طويلُ الأمل في حياته لا يقنع باليسير، واسعُ الأمان في عيشه لا يرضى بالقليل، فهو في حياته وتطلّاب عيشه كالعين التي لا تكفُّ عن النظر ما دامت الآثارُ باقيةً والمعالمُ قائمةً، فإذا ما انمَحَت الآثارُ انصرفتِ العين، وكذلك نفسُ الإنسان لا تنصرفُ حتى ينقضي عُمرها.

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، شاعر فحل مخضرم، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، وهو صاحب البردة الاعتذارية المشهورة التي قيل إنه أنشدها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

شرح بيتي (لين العزة)

قال أبو الشيص^(١):

كريمٌ يَغْضُ الطرفَ فضلُ حيائهِ ويدنو وأطرافُ الرِّماحِ دوانِ

فضلُ حيائه: حياؤه الزائد.

يقول: إن هذا الرجل كريمُ الخلائق، عفيفُ النفس، جُمُ الحياء، حتى إنك لتراه من شدة حيائه كاسراً طرفه لا يُحَدُّ النظرَ لأحد، هذا حاله في السُّلم، فأما إذا لقيته في الحربِ تعجبتَ من قوة اقتحامه وشدة إقدامه، حتى إنك لتراه يقترب من أطراف الرماح وهي قريبة تكاد تنوشه!

وكالسيفِ إن لايتَّه لأنَّ مُهً وحدَّاهُ إن خاشنته خَشِنانِ

لايتته: عاملته باللين واللفظ.

خاشنته: عاملته بالخشونة والقسوة.

يقول: وهو -في شيمه وطباعه- كالسيف، إن عاملته باللين لاقيت منه ليناً كالذي تلقاه في صفحتي السيف عند لمسه، وإن عاملته بالحدة لاقيت منه حدة كالذي تلقاها من حدِّ السيف ومضربه.

(١) هو أبو الشيص، محمد بن عبدالله الخزاعي، شاعر عباسيٌّ مولدٌ مشهور، وقد فضَّله الخليفة المأمون على سائر طبقته، ولكن وجود شعراء في عصره كمسلم بن الوليد وأبي نواس أخمل ذكره كما يقول الأصفهاني، وشعره كثير مستجاد في الحماسة والأمالى وغيرها، وهو ابن عم الشاعر دعبل الخزاعي.

وهذا اللين إنما يُحمَد في الشريف المُقتدر، فإن لينة يكون عن مقدرة وقصد،
أما الدليل العاجز فلا يُحمَد فيه ذلك، بل يُذم كما قال أبو تمام:

لَانتَ مَهَزَّتْهُ فَعَزَّ وَإِنَّمَا يَشْتَدُّ بِأَسُّ الرَّمَحِ حِينَ يَلِينُ
وَتَرَى الْكَرِيمَ يَعِزُّ حِينَ يَهُونُ وَتَرَى اللَّئِيمَ يَهُونُ حِينَ يَهُونُ

شرح أبيات (لولا بُنيّات...)

وقال حطّان بن المعلّى^(١):

لولا بُنيّاتُ كزُغبِ القَطَا رُدِدْنَ من بعضٍ إلى بعضٍ
لكان لي مُضطَّرَبٌ واسعٌ في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرضِ
زُغب القَطَا: الزُغب الفِراخ الصغيرة، والقَطَا نوعٌ من الطير كالحمام، وزُغب
القَطَا: فراخ الطير.

مُضطَّرَب: الاضطراب الحركة، ويعني: لكان لي متحرّكٌ وانتقالٌ عما أنا فيه.
يقول: لولا بناتٌ لي صغيرات كأنهنّ أفراخ الطير اجتمعن لي واحدةً بعد أخرى
وبتّاً بعد بنتٍ حتّى كُثرن عندي لكان لي في الأرضِ الواسعة مذهبٌ فسيح، ولأكثرُ
التنقّل والترحال في البلاد، ولكنني أخاف ضياعهنّ، وأسعى في عيشهنّ.

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا نمشي على الأرضِ
لو هبّت الريحُ على بعضِهم لامتنتعت عيني من الغمضِ

يقول: وما محلُّ أولادنا من أنفسنا إلا محلُّ الأكباد من الأجواف، فلسنا نطيق
لهم فراقاً، ولسنا نحتمل عنهم صبراً، ونحن في شفقةٍ عليهم، فلو أن الريح هبّت
فسفّت التراب على أحد أولادي لما استلذّ لي نوم، ولا غمض لي جفن.

(١) هو حطّان بن المعلّى الطائي، وقيل اسمه: خطاب، شاعر إسلامي بدوي مغمور، واشتهر
بقطعة هذه التي انتقاها أبو تمام في حماسته.

وهذه الأبيات تُشبه قول الحماسي في ابنته (أميمة):

لولا أميمة لم أجزع من العدم	ولم أقاس الدجى في حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي	ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

ويشبهها قول الآخر:

لقد زاد الحياة إليّ حبّا	بناتي إنهنّ من الضعاف
أحاذر أن يرينّ البؤس بعدي	وأن يشربنّ رنقاً غير صافي
فلولا ذاك قد سوّمتُ مهري	وفي الرحمن للضعفاء كاف

شرح أبيات (زجاجة بشرية)

وقال قيس بن الملوّح^(١):

أُقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

يقول: إني أقضي نهاري كله بالحديث عنها، وأصوّر لنفسي جميلَ العواقب فيها، وأنهمك في الخيالات والأمانى في وصالها، حتى إذا ما أتى الليل خلا بي جيش الهمّ وانفردت بي قوافل الحسرة، فتذكرتُ صعوبة مرامي، واستحضرتُ بعد آمالي.

لَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

يقول: ألا إن محبتك في نفسي باقيةٌ دائمة، ومودتك في فؤادي مستمرة متصلة، ولقد ثبتَ هوائك في قلبي ثباتًا لا ترحُح له كما ثبتت في راحة اليد الأصابع.

وَأَنْتِ الَّتِي صَيَّرْتَ جِسْمِي زَجَاجَةً تَنْمُ عَلَيَّ مَا تَحْتَوِيهِ الْأَضَالَعُ

تَنْمُ: تدلّ عليه وتُبديه.

يقول: وأنت التي هويت فنحلت بعد سَمَن، وضعُفت بعد قوة، ومرضتُ بعد صحة، وبدت عليّ آثار الهوى والحبّ لكل أحد، حتى أضحيّ جسمي كالزجاجة التي تكشف ما في جوفها.

(١) هو (مجنون ليلي) قيس بن ملوّح العامري، وهو أحد القيسيين الشاعرين المتيّمين، والثاني (مجنون لبني) قيس بن ذريح، وكان ابن الملوّح شاعرًا فصيحًا بديع المعاني، وأكثر شعره في النسيب، وتوفي مما برّح به من الحب سنة ٦٨ هـ.

وهذا يشبه المعنى الذي قصده أبو الطيب بقوله:

أمر الفؤاد لسانه وجفونه فكتمنه وكفى بجسمك مخبرا

شرح أبيات (قتل الأحرار)

قال أبو الطيب^(١):

وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفو عنهم ومن لك بالحرِّ الذي يحفظ اليدا

يقول: إن العفو عن الأحرار الكرام الذين يحفظون الأيادي هو قتل لهم، وليس المراد حقيقة القتل، وإنما المراد قتلهم بالإحسان وتملك رقابهم بالمعروف، فمن عفا وصفح عن الحر فكأنما ملك رقبته وجعله ينقاد له، ولكن أين هذا الحر الذي يحفظ النعمة ويقدرها؟! ثم فصل في البيت التالي حال الناس مع شكر النعم فقال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فأما الكريم فإنك إذا أحسنت إليه وعفوت عنه فإن روحه الطيبة تجعله يذكر هذا المعروف ويشكره، فكأنما أنت ملكته بهذا العفو، وأما اللئيم فلا يزيده المعروف والعفو إلا تمردًا وجراءةً عليك، ولذلك ينبغي للإنسان أن يضع كل شيء في موضعه اللائق به، فمن النفوس من لا تصلح إلا بالمجازاة، ومنها ما يصلحها العفو، فلذلك قال:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

الندى: العطاء.

يقول ينبغي أن يعامل كل إنسان بما يصلحه، ويناسب طبيعته وحالَه.

(١) تقدمت ترجمته.

شرح أبيات: (هوى الفؤاد)

وقال المتنبي كذلك:

صار ما أوضع المخبئون فيه من عتاب زيادة في الودادِ

أوضع الراكب بعيره: إذا حثه على السير السريع.

المخبئون: الذين يحملون مطاياهم على الخبب، وهو نوع من الركض.

يقول: صار ما أراده الذين سعوا في الوشاة وإيقاد فتيل العداوة سبباً في زيادة الوداد.

وكلام الوشاة ليس على الأحـ باب، سلطانه على الأضدادِ

كلام الوشاة ليس له سلطان على الأحباب، وإنما سلطانه على الأضداد، فهو

لا يؤثر إلا في الأعداء.

إنما تُنجحُ المقالة في المرءِ إذا صادفتُ هوى في الفؤادِ

يقال: أنجح حاجته، إذا أصابها.

وهذا تأكيد لما سبق، فالقول لا يؤثر في نفس الإنسان إلا إذا صادف هوى في قلبه.

وهذا كما سبق من قول الطرمّاح بن حكيم:

متى ما يسؤ ظنُّ امرئٍ بصديقهٍ وللظنِّ أسبابٌ عراضُ المسارحِ

يُصدّقُ أموراً لم يجنّه يقينها عليه، ويعشق سمعهُ كلَّ كاشحِ

وقد مضى أن المرء إذا أنس إلى كلام لمصادفة هوى في نفسه صار يميل إليه
وتتعلّقه أذناه، وإن لم يكن حقاً، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن خلدون في مقدمته
فقال: (النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقّه من التّمحيص
والنّظر، حتّى يتبيّن صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيّع لرأي أو نحلة، قبلت ما
يوافقها من الأخبار لأوّل وهلة، وكان ذلك الميل والتّشيّع غطاءً على بصيرتها عن
الانتقاد والتّمحيص، فيقع في قبول الكذب ونقله).

شرح بيتي (مماطلة)

إن كنتَ لم تنو فيما قلتَ لي صلةً فما انتفاعك من حبسي وترديدي؟

صلة: يعني عطاءً.

يقول: إن لم ترد أن تفي لي بوعدك الذي أخبرتني به، وتجزل لي في عطائك الذي أطمعتني فيه، فماذا تنتفع بمماطلتي؟ ولماذا تبقيني معلقاً بك، محبوباً عندك، متردداً عليك! فاليأس أيسر على النفس من رجاء لا يتحقق!

فالمنعُ أجملُه ما كان أعجلَه والمطلُ من غير عسرِ آفة الجودِ

المطل: التسويف والتأخير والمدافعة في إنجاز الوعد والدَّين ونحوه.

عُسر: قلة ذات اليد، وانقطاع المال.

آفة: عيب.

يقول: فإن أجملَ المنع وأنفعَ الحرمانِ ما كان عاجلاً، لا يمدّ لصاحبه خيطاً من الأمل قد ينقطع به، وإن أعظم ما يُشأن به المرء ويُعاب أن يكون مماطلاً من غير عُسر، ومسوّفاً من غير عُذر.

قال أبو العتاهية:

أُكُلُ طولِ الزمانِ أنتَ إذا جئتُك في حاجةٍ تقول: غدا!
لا جعل الله لي إليك ولا عندك ما عشتُ حاجةً أبداً

وقال ابن الرومي:

إذا أنت أزمعت الصنعة مرةً فلا تعتصِرْ ماء الصنعةِ بالمطلِ
ولا تخلط الحُسنِ بسوءٍ فإنه يجشُّمُنَا أن نخلطَ الشكرَ بالعدلِ

شرح أبيات (شيمتك الحياء)

وقال أمية بن أبي الصلت^(١):

أذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياءُ

شيمتك: خُلقك وطبعُك.

يقول: هل أذكر بين يديك حاجتي التي جئتُ أريدها؟ أم أصمتُ عنها معتمدًا على فضل فطنتك، وسعة معرفتك، ورهافة حسِّك؟ إذ إن الحياءَ غالبٌ فيك، فلست تُحبُّ أن ترى سائلًا عرضَ وجهه عليك، وساقه الفقرُ إليك.

وعلمُك بالحقوقِ وأنت فرعٌ لك الحسبُ المهذبُ والسناءُ

الحسبُ المهذبُ: الحسبُ هو كريمُ الفعال في الآباء والأبناء.

السناءُ: العلوُّ والارتفاع، يريد علوَّ نسبه وشرفَ حسبه.

يقول: ويكفيني كذلك علمُك بمنازل الناس وحقوقهم، ومقادر الكرام وحاجاتهم، فإنك فرعٌ لأصلٍ كريم جمعَ الحسبَ الزاكي والنسبَ الشريف.

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا كفاهُ من تعرُّضه الشاءُ

يقول: إذا ما قام إنسانٌ بين يديك يومًا، وأخذ يُثني عليك بكريم الخصال، ويذكرك بطيبِ الفعال؛ لم يحتج فوقَ ذلك أن يسألك حاجته، لأنك ستغنيه بإحسانك وجودك عن التعرض للحاجة والسؤال.

(١) تقدمت ترجمته.

قال أبوبكر المخزومي:

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجةً فلقاؤه يكفيكَ والتسليمُ
فإذا رآكَ مسلماً عرفَ الذي حمّلتَه وكأته ملزومُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

وفي النفسِ حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطابُ!

شرح بيتي (لا أرى أحدا)

قال دعبل الخزاعي^(١):

ما أكثرَ الناسَ! لا بَلَّ ما أَقلُّهُمُ اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا على كثيرٍ.. ولكن لا أَرَى أحدا

الفند: الكذب.

يقول: ما أكثرَ الناسَ، بل ما أقلَّ الناسَ! والله يعلم أني لم أقل قولاً كذباً في الأولى ولا في الثانية.

فما أكثرهم من جهة العدد، وما أقلهم من جهة القيام بالواجبات والإعانة على المكارم، فما أكثرهم عدداً وما أقلهم نوعاً، وفي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة)^(٢)، قال ابن بطال: معنى الحديث أن الناس كثير، والمرضيّ منهم قليل^(٣).

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٨) ومسلم (٢٥٤٧).

(٣) شرح البخاري لابن بطال (٢٠٧/١٠).

شرح بيتي (لم يستوف قط كريم)

قال الخطابي^(١):

تسامح ولا تستوف حَقَّك كُلَّهُ وأبق، فلم يستوف قط كريم

تسامح ولا تحرض على استقصاء حقوقك كاملة، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢): ما استقصى كريم قط!

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

اقتصد في كلِّ شؤونك وعامة أحوالك، ولا تغل في شيء منها، وكلُّ أمرٍ من أموركَ ففيه طرفانِ مذمومان ووسط ممدوح، ولزوم القصد أعظم ما يعين الإنسان على المواظبة في جميع شؤونهِ حتى عباداته وقرباته، فالشيطان إذا علم من الإنسان عزيمةً على الخير، وأيسر من تشييط همته وإعادته نحو الوراء، فإنه يغير استراتيجية المعركة ويدفعه دفعًا باتجاه الأمام، ويؤزّه أزا إلى مراتب عليّة يعلم أنه لن يطيقها إلا مدةً يسيرة، ويسهلها عليه تسهيلًا، ثم ما يلبث العبد إلا وينقطع، فالخير دومًا في لزوم الهدى النبوي في المداومة ولو على القليل والاقتصار على المشروع، والترقي شيئًا

(١) هو حمّد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي، كنيته أبو سليمان، وهو فقيه ومحدث، من أهل بستان من بلاد كابل، وهو من نسل زيد بن الخطاب أخيه عمر بن الخطاب، للخطابي مؤلفات منها: معالم السنن في شرح سنن أبي داود، وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح غلط المحدثين. توفي سنة ٣٨٨هـ.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر (٨/٥٧٦).

فشيئاً، ولذلك يروى عن بعض السلف أنه قال: (ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى غلو، وإما إلى تقصير، فبأيّهما ظفر قنع)^(١).

(١) العزلة الخطابي (٢٣٧).

شرح أبيات (نوم مشرد)

قال أبو تمام^(١):

ولم تعطني الأيامُ نومًا مُسَكَّنًا أَلَدُّ به إلا بنومٍ مشرَّد

يقول: لم أنم في حياتي نومةً ساكنةً، إلا وقد سبقها نومٌ مشرَّد مطرَّد، فلا يمكن للمرء أن يصل إلى الراحة إلا على جسر التعب.

وطولُ بقاءِ المرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ لِدِيابَجَتَيْهِ فَاغْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ

الديباجتان: الخدان.

والمقصود أن الإنسان إذا مكث في مكانٍ واحد وأبى الاستجابة لمطالب السفر إذا قامت، ونأى عن دواعي الاغتراب إذا نادت، فإنه يَمَلُّ ويُمَلُّ ويذبل ويخلولق، وفي اغترابه وسفره يجد عوضاً عن تركهم، وينبعث نشاطه، ويتجدد أديمه، ويشتاق إليه الناس الذي فارقهم، بخلاف من كان حضوره دائماً، فإنه مع مرور الأيام يمل الناس ويملونه، ثم ضرب مثلاً على فضل الغياب فقال:

فلإني رأيت الشمس زبدتُ محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدٍ

فالناس إنما زادت محبتهم للشمس لأنها تغرب وتشرق، تضيء وتأفل، ولو كانت قائمة في وسط السماء سرمدًا لما عرف الناس فضلها.

(١) تقدمت ترجمته.

شرح أبيات (أطعت مطامعي)

قال القاضي عبد الوهاب المالكي^(١):

طلبْتُ المستقرَّ بكلِّ أرضٍ فلم أرَ لي بأرضٍ مستقرًّا
ونلتُ من الزمانِ ونالَ مِنِّي فكان منالُهُ حُلُوءًا ومُرًّا

طلبت الاستقرار في حياتي في كل أرض فلم أجده بأي أرض، ونلت في زماني المكاسب كما نلت المصائب، ووجدت منال الزمان حلوا ومرّا.

أطعتُ مطامِعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنتُ حُرًّا

حين أطعت مطامعي وشهواتي أصبحت أسيرًا لها، فهي إما شهوات تتمنع عليّ ولكنني بالطمع أطلبها حتى أكون أسيرًا لمطالبها ولما يوصلني إليها، وإما شهوات تتحقق لي فأستمر في طلب المزيد منها وفي الخضوع لما أظنه يديمها، ولو أني قنعت بما وهبني ربي من نعم لكنتُ حرًّا لا أخضع لغير خالقي، فالنفس إذا طمعت واستشرفت فإنها تستعبد صاحبها.

(١) هو عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي، القاضي أبو محمد، أحد أئمة المذهب المالكي، سمع أبا عبد الله العسكري وأبا حفص بن شاهين، وكان شاعرا حسن العبارة، لقي أبا العلاء المعري، وأطرى المعري شعره وعلمه، ولي قضاء المالكية بمصر آخر عمره وبها مات قاضيا، توفي سنة ٤٢٢ هـ.

شرح أبيات (قناة صليبة)

قال إبراهيم النبهاني^(١):

تعزّ فإن الصبرَ بالحرِّ أجملُ وليس على ربِّ الزمانِ معولُ

تعزّ: اصبر وتجلّد.

رب الزمان: حوادث الدهر ونوائبه.

معول: مُعْتَمِدٌ ومُتَّكِلٌ.

يقول: تصبّر وتجلّد، فإن الصبر أحسن وأجمل للفتى الحرّ من الخضوع والتذلّل، وهذه الأحداث ليست على حالة واحدة، بل هي كثيرة التبدل والتحوّل، فلا يُعتمد عليها ولا يُتكلّ، فهي تحسن وتسيء، وتجمع وتفرّق.

فإن تكن الأيامُ فينا تبدّلتُ بيؤسى ونُعمى، والحوادثُ تفعلُ
فما لئنّتُ منا قناةً صليبةً ولا ذلّلتنا للتي ليس نجملُ

بيؤسى: البؤسى والبأساء: المصائب والآفات. النُعمى: النُعمى والنعماء: رغد العيش وحلاوته.

قناة صليبة: أصلُ القناة الرمح، والعربُ تستعير القناة كنايةً عن عزة الرجل وبأسه وامتناعه.

(١) هو إبراهيم بن كُنيف النبهاني، شاعر إسلامي مُقل، وهو مشهور بلاميته هذه التي اختار منها أبو تمام في حماسته أبيات عدة.

التي ليس تجمل: أي للذي لا يحسن بنا من الخضوع والعار، واستغنى
بالتعريض به دون التصريح زيادة في الأنفة منه، وتوكيداً للبعد محلهم عنه.

يقول: ولئن كانت هذه الأيام دارت بنا بالنعماء مرة وبالبأساء مرة أخرى - كعادة
الدهر - فإنها لم تغيّر فينا شيئاً! فلم تضعف قوتنا، ولم تُنقص عزمنا، بل بقينا أعزّة
لم تُذلّنا نوائب الزمان.

ولكن رحلناها نفوساً كريمةً تُحمّل ما لا يُستطاع فتحملُ

رحلناها: حملنا عليها، يُقال رحلَ البعير إذا حمّل عليه.

يقول: وإنّا قد هيأنا لنوائب الدهر وأعددنا لحوادث الزمان نفوساً كريمةً أبيّة،
نحملها على صعاب المراكب، ونجشمها مضايق الأمور، فتحمل ما يضيق عن
حملة الرجال.

شرح أبيات (لزوم العصا)

قال لبید بن ربیعۃ^(١):

وما المرءُ إلا كالشَّهابِ وضوئه يحورُ رمادًا بعدَ إذْ هو ساطعُ

يحور: يرجع.

ليس المرء إلا كالشهاب يلتمع في الأفق ثم يكون رمادا يضمحل ويخبو، يضيء ثم يذهب نوره بالهرم والشيخوخة، ويعقب ذلك الزوال والفناء.

أليس ورائي إن تراخت مِنِّي لزومُ العصا تُحنِي عليها الأصابعُ
أخْبِرُ أخبارَ القرون التي مَضَتْ أدبُ كأي كلما قُمْتُ راعُ!

أليس ورائي إن تأخرت مِنِّي وانفسح أجلي أيام الضعف والخبو والهزال التي ألزم فيها العصا وأحني عليها الأصابع، وأدبُ ديبًا إذا أردت المشي، وأظلُّ في تلك الحال أخبر من لاقيتُ بأخبار القرون التي مضت وأنا قائم على هيئة تشبه هيئة الراكع؟!

(١) هو لبید بن ربیعۃ بن مالك، أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أحد أصحاب المعلقات السبع، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من الصحابة، عزف عن قول الشعر بعد الإسلام، قيل بأنه لم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدا، وهو: ما عاتب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح.
عاش لبید عمرا طويلا. كان كريما: نذر أن لا تهب ريح الصبا إلا نحنر وأطعم.

شرح بيتي (خاتل يدنو لصيد)

قال أبو الطمحان القيني^(١):

حَتَّنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَاتِلٌ يَدْنُو لَصِيدِ
قَرِيبُ الْخَطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رَأَى - وَلَسْتُ مَقِيدًا - أَنِّي بَقِيدُ

خَاتِلٌ: فاعل من المخاتلة. والمخاتلة في الأصل المشي للصيد في خُفْيَةٍ وبطء
لئلا يسمع الصيدُ حَسًّا. ثم صارت المخاتلة تطلق في كل ما وُزِّيَ وُعْمِيَ على صاحبه.

وصف الشاعر نفسه حين بلغ الشيخوخة بوصفين بليغين:

أحدهما يتعلق بوقوفه، والثاني يتعلق بمشيهِ.

فأما ما يتعلق بوقوفه فيقول في البيت الأول:

حَتَّنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ أَي جَعَلَتْنِي حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَأَيَامُهُ مَنَحْنِيًّا رَاكِعًا فِي مَشِيَّتِي
كَأَنِّي خَاتِلٌ يَمْشِي فِي خُفْيَةٍ وَبَطْءٍ نَحْوِ صَيْدٍ لَاحٍ لَهُ، وَالْخَاتِلُ مَنْ عَادَتَهُ أَنْ يَدْنُو مَتَرَوِّيًا
مَتَمَهِّلًا مُحَاذِرًا أَنْ يَسْتَفْزَ الصَّيْدَ فِيْهَرَبَ.

وأما ما يتعلق بمشيهِ فيقول في البيت الثاني:

خَطَوَاتِي مُتَقَارِبَةٌ مِنْ بَعْضِهَا حَتَّى إِنْ مَنْ رَأَى لِيَتَوَهَّمُ أَنِّي مَقِيدٌ وَلَسْتُ كَذَلِكَ.

(١) هو أبو الطمحان القيني، اسمه حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين. من المعمرين، قال
أبو حاتم: عاش أبو الطمحان القيني مائتي سنة.

شرح أبيات (قذى عينيه)

قال عبد الله بن الزبير^(١):

سأشكرُ عمرو ما تراخت مِنِّي أيادي لم تُمنن وإن هي جَلَّتِ
جلت: عَظُمَت.

يقول: سأظل شاكرًا لعمرو ما تأخر موتي وانفسح أجلي، وسأبقى ذاكرًا لأَياديهِ
الجسيمة ونِعَمِهِ العظيمة التي لم يكدرها بِمَنَّةٍ ولا أذى.

فتى غيرُ محبوبٍ الغنى عن صديقِهِ ولا مُظهرٍ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ

شرع في وصف عمرو، وأثنى عليه بصفتين نادرَتين تكمل كل واحدة منهما
الأخرى:

الأولى: أن عمروًا إذا اغتنى فإن غناه متعدٍ إلى أصدقائه وأصحابه.

والثانية: أن عمروًا إذا افتقر فإن فقره لازم له، فليس هو بمظهر الشكوى لغيره.

و(زلت النعل به) كلمة تقال في الكناية عن نزول الشر به.

رأى خَلَّتِي من حيثُ يخفى مكانُها فكانت قَذَى عَيْنِيهِ حتَّى تَجَلَّتِ

الخلَّة: الحاجة.

(١) هو عبدُ الله بن الزَّبير بن الأَشيم بن الأَعرشى بن بَجْرة الأَسدي. شاعر كوفي، من شعراء
الدولة الأموية ومن شيعتهم والمتعصب لهم، وهو في أبياته المختارة يمدح بها عمرو بن
عثمان بن عفان.

يقول: رأى حاجتي المستورة التي لم أبخ بها، فهو تيقظ لها دون بوح مني، ثم اهتم بها واغتم لأجلها فكانت كأنها قذى العين، لا يسكن حتى يزيله منها.

ومن كانت هذه صفته من الأصدقاء فقد بلغ الغاية في الإحسان على أخيه، قال أبو هلال العسكري عن هذه الأبيات -بتصرف يسير-: (هي أبلغ ما قيل في اهتمام الرجل بأمر أخيه، وقوله: «من حيث يخفي مكانها» أبلغ لأنه يدل على تفقد شديد وعناية تامة. وقوله: «قذى عينيه» لا يقوم مقامه شيء في شدة الاهتمام؛ لأن الإنسان إذا قذيت عينه صرف الهمّة إلى تقذيتها من غير اشتغال بشيء غيرها)^(١).

(١) ديوان المعاني (١/ ١١٠).

شرح أبيات (منه شيبان)

قال ابن الرومي^(١):

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم: كلا لعمرى، ولكن منه شيبانُ
وكم أب قد علا بابن ذرى شرفٍ كما علا برسول الله عدنانُ
تسمو الرجال بآباء، وآونة تسمو الرجال بأبناء وتزدانُ

الذرى جمع ذروة، وهي أعلى الشيء.

يقول بأنهم قالوا بأن أبا الصقر فرع من أصل شيبان، فذكرت لهم أنه هو الأصل الذي تنسب إليه شيبان، وقصد بذلك المغالاة في الثناء عليه، وأن أصله يشرف به، وليس هو من يشرف بأصله، كما يقول المتنبي:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بالجدود

ولا شك أن عدنان هي من شرفت برسول الله وعلت به مع شرف قبيلته قبل مبعثه، فإن الرجال إن كانت تسمو بآبائها فكم قد سما وشرف الآباء والأجداد بالأبناء والأحفاد.

(١) تقدمت ترجمته.

شرح بيتي (صبر الراس)

قيل إنه لما مات العباس بن المأمون جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً، فدخل عليه أعرابيٌّ فلما بصر به قال:

اصبر نكن لك تابعين فإنما صبر الجميع بحُسنِ صبر الراسِ

اصبر -أيها الكبير في قدره ومكانته- على هذه المصيبة التي نزلت علينا نكن تابعين لك في الصبر والتسلي، فإنه إذا صبر الرأس والأسوة كان معيناً لسائر الناس على الصبر والثبات، وإذا تضعف الرأس اضطربت سائر الأعضاء.

خيرٌ من العباسِ أجرُك بعده والله خيرٌ منك للعباسِ

لو تأملتَ فستري أن في طيات هذه المصيبة التي نزلت خيرين عظيمين:

أحدهما يتعلق بك، والآخر يتعلق بهذا الذي تحزن على وفاته:

فأما ما يتعلق بك فهو أجر الصبر، فهذا الأجر خير لك وأبقى من بقاء حبيبك على قيد الحياة.

وأما ما يتعلق بالعباس فهو عند ربك، وهو أرحم به، وهو خير له منك، قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الشورى: ٣٦].

شرح بيتي (إحدى يدي أصابتني)

قال أعرابي قتل أخوه ابنا له فَقُدِّمَ إليه لِيَقْتَاد منه، فَأَلْقَى السيف وهو يقول:

أَقُولُ لِلنَفْسِ -تَأْسَاءُ وَتَعَزِيَّةٌ-: إحدَى يَدَيَّ أَصَابْتَنِي وَلَمْ تُرِدْ

أقول لنفسي متأسيا بغيري ومعزيا لها: هذا الذي جنى عليّ وقتل ولدي هو بمنزلة إحدَى يَدَيَّ، فهل أنا قاطع يدي إذا أصابت جسدي دون قصد؟!

وقوله: «ولم ترد» فيه التماس العذر لأخيه، وأنه ما قصد الجناية وإنما ربما حمله عليها الغضب الذي أعمى بصيرته.

كلاهما خَلَفَ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هذا أخي حين أدعوه، وذا ولدي!

كلا الرجلين القاتل والمقتول عوضٌ لي إذا فقدتُ الآخر، فإذا فقدت ابني وجدت في أخي سلوةً وخلفاً، وما داما كذلك فإني إذا فقدتُ أحدهما فلن أفرط بصاحبه، بل سأحرص على استبقائه حَيًّا فهو خَلَفٌ لي عما فاتني، وهو عوضٌ أعزّي به نفسي.

شرح أبيات (قومٌ سواء)

وقال أعرابي يهجو قومًا من طيء:

ولما أن رأيتُ بني جوينٍ جلوسًا ليس بينهمُ جليسُ
يئستُ من التي قد جئتُ أبغي لديهم، إنني رجلٌ يؤوسُ

يقول: لما وفدتُ على بني جوين بن عبد رضا الطائيين - أرجوكرمهم، وأطمع في نوالهم - فرأيتهم جالسين إلى بعضهم، لا أرى لأحد منهم مزية على غيره، ولا أبصر لرجل منهم فضلًا على من سواه؛ يئستُ من إنجاحهم حاجتي التي أتيتُ لأجلها، فإن شرَّ القوم من لا رئيس لهم ولا كبير عليهم، فهم في المرتبة والفضل سواء، وكذلك دأبي في اليأس من القوم الذين هذه صفتهم.

إذا ما قلتُ أيهم لأبي تشابهت المناكبُ والرؤوسُ

يقول: وتراهم إذا ما سألتُ أي واحد فيهم فقلت: أيهم يُرد إليه الأمر؟ وأيهم كذا؟ وأيهم كذا؟ لم تجد أحدًا يفضّل أخاه، ولا رجلًا يتقدّم غيره! فهم قومٌ سواء متشابهون، وأيُّ فسادٍ بعد هذا؟

وهذا معنى معروف عند العرب، فإنهم يقولون في ذم القوم (هم سواء كأسنان المشط)!

وهو نحو قول الشاعر:

سواء كأسنان الحمارٍ فلا ترى لذي شيةٍ منهم على ناشيٍ فضلًا

شرح أبيات (حجة اللئام)

قال المتنبي^(١):

ذَلَّ مَنْ يَغْطِ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رَبِّ عَيْشٍ أَخْفُ مِنْهُ الْحِمَامُ

الحِمَام: الموت.

يقول: مَنْ يَغْطِ الذَّلِيلَ عَلَى عَيْشِهِ فَهُوَ ذَلِيلٌ، وَرَبِّ مَوْتٍ هُوَ أَخْفُ عَلَى النَّفْسِ
مِنْ هَذَا الْعَيْشِ!

كُلْ حِلْمٌ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِئٌ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

كُلُّ حِلْمٍ يَحْصُلُ بِالْعِزِّ فَلَيْسَ حِلْمًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ لِلْعَاجِزِ
اللَّئِيمِ، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ الْحِلْمُ وَيَجْمَلُ الْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ عَلَى ضِدِّهِ، فَلَيْسَ الْعَفْوُ
مَحْمُودًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْتِصَارُ مُسْتَحْبًا تَارَةً وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا تَارَةً
أُخْرَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [سورة الشورى: ٣٩]. وَقَدْ
قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: (إِنَّ فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ فَائِدَةً عَظِيمَةً، وَهُوَ أَنَّهُ حَمْدُهُمْ
عَلَى أَنَّهُمْ يَنْتَصِرُونَ عِنْدَ الْبَغْيِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ يَعْفُونَ عِنْدَ الْغَضَبِ، لَيْسُوا مِثْلَ الَّذِي
لَيْسَ لَهُ قُوَّةُ الْإِنْتِصَارِ، وَيَعْفُونَ لِعِزِّهِمْ أَوْ كَسَلِهِمْ أَوْ وَهْنِهِمْ أَوْ ذُلِّهِمْ أَوْ حُزْنِهِمْ، فَإِنْ
أَكْثَرَ مِنْ يَتْرَكَ الْإِنْتِصَارَ بِالْحَقِّ إِنَّمَا يَتْرَكَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ وَأَشْبَاهِهَا)^(٢).

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجِرِحَ بِمَيْتٍ إِيلَامٌ

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) الفروع، ابن مفلح (١٠: ١٦٧).

كل من كانت نفسه هَيِّئَةً عَلَيْهِ، فإنه مطبوعٌ على احتمال الذل وتجبرعه، ولا تراه
يكثرث بما يَلْحَقُهُ من الهوان، فصاحب هذه النفس ذليل لا تؤلمه الإهانة ولا يحسّ
بها أصلاً، فهو كالميت لا يشعر بألم الجراح.

شرح أبيات (سهل فيها إذا هو كانا)

وقال أيضا:

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَّى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلُنَا الشَّجْعَانَا

لو كانت الحياة تبقى لأحد من الناس لكننا نعتبر الشجاعة غباوةً، ولعددنا الشجعان أضلَّ الناس وأحمقهم، ولكنَّ المنايا تأخذ بِحُجَزِ الشجعان والجبناء، لا تستثني أحداً.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا

ما دام الموت نهاية الجميع، فمن العجز أن يكون الإنسان جبَّاناً، ويروى أن خالد بن الوليد كان يقول على فراش الموت: في جسدي مائة طعنة وضربة، وها أنا قد مت حتف أنفي، فلا أقرَّ الله أعين الجبناء^(١)!

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ، مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْدِ نَفْسٌ، سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

كل ما يتهيئه الإنسان إنما يصعب على النفس زمن ارتقابه قبل وقوعه، فإذا وقع المهيّب سهل على النفس وهان عليها. وكما قيل:

لَعَمْرُكَ مَا الْمَكْرُوهَ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يَتَوَقَّعُ

(١) انظر: الاستيعاب (٣/ ١٦٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٢)، ومجمع الأمثال (٣٧٧٠).

شرح أبيات (رجال الحقائق)

قال الوزير ابن المغربي^(١):

مررت بقبر ابن المبارك غُدوةً فأوسعني وعظاً، وليس بناطقٍ
وقد كنتُ بالعلم الذي في جوانحي غنيّاً، وبالشيب الذي في مفارقي
ولكن أرى الذكرى تنبّه غافلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق

الغدوة: أول النهار.

المفارق: جمع مفريق، وهو وسط الرأس، وهو الذي يُفَرَّق فيه الشعر.

يقول: مررت بقبر الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله أول النهار، فوعظني مرأى القبر رغم صمته وهموده وعظاً مؤثراً، وقد كنت مستغنيا عن هذه الموعظة بما في صدري من العلم، وبما في رأسي من الشيب، فإن العلم والشيب واعطان بليغان، ولكنني أرى الذكرى تنبّه غافلاً مثلي إذا جاءت من رجال أدركوا الحقائق واستبان لهم مآلات الأمور فشغلوا زمانهم بما ينفعهم، وقطعوا أيامهم بعمران آخرتهم، وقد كان عبد الله بن المبارك من فلتات الزمان وأفذاذ الرجال، كان حافظاً، محدثاً، مجاهدًا، عابداً، أكثر من الترحال والتطواف، وكان تاجراً ينفق على إخوانه في الله، ويجهزهم معه إلى الحج. قال سفيان: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون

(١) هو الحسين بن علي بن الحسين المصري الوزير، شاعر أديب، قال الذهبي: له نظم في الذروة، ورأي ودهاء وشهرة وجلالة، وكان جدهم يلقب بالمغربي لكونه خدام كاتباً على ديوان المغرب، وأصله بصري. كان شيعياً. توفي سنة ١٨٤ هـ ودفن بالكوفة بوصية منه.

سنة مثل ابن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام^(١).

(١) انظر ترجمة الإمام ابن المبارك في: التاريخ الكبير (٢١٢/٥)، وتهذيب الكمال (١٦/٥)، وسير أعلام النبلاء (٣٧٩/٨).

شرح أبيات (حقيقة الفخر)

قال أبو الأسود الدؤلي^(١):

كم من حسيبٍ أخِيٍّ وطمطمَةٍ فدمٍ لدى القومِ معروقيٍّ إذا انتسبا
في بيتٍ مكرمةٍ، آباؤُهُ نجِبٌ كانوا رؤوسًا، فأمسى بعدهم ذنبا

عِي وطمطممة: العِي العجز في القول والفعل، والطمطممة: العجمة وترك الإبانة في الكلام.

فدم: أحقق ثقیل الفهم.

معروق: عريق الأصل والنسب.

يقول: كم من رجلٍ معروفٍ بالنسب العريق، ومشهورٍ بالآباء الكرام، لكنه بعيد منهم في آثارهم، مباينٌ لهم في أفعالهم، لا يستطيع الإبانة، ولا يُحسن الكلام، وتراه كذلك أحققًا غليظَ الفهم، على أنه من بيتٍ شرفٍ ومجد! فهو وإن كان آباؤه رؤوسًا أشرفًا في الناس إلا أنه فيهم ذنبٌ مذموم، فلا هو الذي حمل شرفَ آبائه، ولا هو الذي سعى لمروءةٍ نفسه.

وخاملٍ مقرِفِ الآباءِ ذي أدبٍ نال المعاليَ بالآدابِ والرتبا

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، تابعي مشهور، وهو واضع علم النحو، وناقد المصحف الشريف، وكان معروفًا بسعة العلم ووفرة الأدب، وولي إمارة البصرة في خلافة علي رضي الله عنه، وله شعر جيد، وكلام فصيح، مات ٦٩ هـ.

خامل: مغمور.

مقرف الآباء: آباؤه ليسوا بمعروفين، وليس هو بذى نسب.

يقول: وكم من رجلٍ لا يُعلم نسبُه، ولا يُعرفُ آباؤه، ولا يُدرى أصلُه وفصلُه،
إلا أنه اجتهد في تحصيل الأدب والعلم، فبلغ بذلك عظامَ الأمور، وحصلَ بهذا
معاليَ الرتب.

شرح أبيات (وربُّ الدار كاره)

قال ابن قدامة^(١):

لَا تَجْلِسَنَّ بِيَابٍ مِّنْ يَّأْبَىٰ عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِهِ

لا تتطلب قضاء حاجاتك من خلال الجلوس بباب رجل يغلق دونك الباب ويأبى عليك دخول الدار، وليس المقصود النهي عن الجلوس عند باب هذا الشخص دون غيره، وإنما المقصد أوسع وأعم، وهو أن لا تعتمد في قضاء الحاجات على أحد من البشر مطلقاً، وإنما اعتمد على ربك مع فعل الأسباب.

وَتَقُولُ: حَاجَاتِي إِلَيْهِ يَعْوقُهَا إِنْ لَمْ أُدَارِهِ

وتقول في نفسك: حاجاتي التي أطلب قضاءها من هذا الرجل، سيعوقها إن لم أقف ذليلاً ببابه وأترك مداراته ومداهنته.

اتركه واقصِدْ رِبَّهَا تُقْضَىٰ، وربُّ الدار كاره!

اترك هذا الرجل الذي يحتاج لمداراتك ويغلق بابه دونك، واقصد دوما ربَّ الحاجات وكاشف الكُرْبَات، تُقْضَ هذه الحاجة وربُّ الدار غير آذنٍ بذلك ولا

(١) هو موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الحنبلي، هاجر مع أهل بيته وأقاربه وله عشر سنين، وحفظ القرآن، ولزم الاشتغال بطلب العلم من صغره، إمام المذهب، كان إماماً في العلم والعمل والخلق، قال الضياء المقدسي: ما علمت أنه أوجع قلب طالب، وكانت له جارية تؤذيه بخلقها، فما يقول لها شيئاً، وأولاده يتضاربون، وهو لا يتكلم. صنف (المغني)، و(الكافي) أربعة، و(المقنع)، و(العمدة)، و(مسألة العلو) وغيرها. قال ابن تيمية: ما دخل الشام - بعد الأوزاعي - أفقه من موفق. توفي ابن قدامة سنة ٦٢٠ هـ.

راضٍ عنه، فإن الله تعالى مسخر الخلق، ومصرف الأقدار، ومُسَبِّبُ الأسباب، وربُّ الدار مجرد سبب من الأسباب.

وكما يقول عبدالرحمن المكودي:

وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصدُ	إذا عرضت لي في زماني حاجةٌ
وقلت: إلهي إنني لك قاصدُ	وقفتُ بباب الله وقفةً ضارعٍ
يقول فتاه: سيدي اليوم راقدُ	ولستَ تراني واقفاً عند باب مَنْ

شرح بيتي: (شكر يستوجب الشكر)

وقال محمود الوراق^(١):

إذا كان شكري نعمةً الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجب الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ وإن طالتِ الأيامُ واتَّصل العُمْرُ

المعنى هو أن نعمة الله على العبد تحتاج إلى شكر المنعم، وتوفيق العبد لأن يشكر نعمة الله عليه هي نعمة أخرى بحاجة إلى شكر، وهكذا تتسلسل النعم وتمتد فلا يمكن للعبد أن يبلغ الشكر الواجب عليه وإن طالت الأيام ولم تنقُص، واتصل العمر ولم ينقطع، فلا ينتهي الشكر الواجب أبداً، وما للعبد إلا سعة فضل ربه تعالى. وقال الإمام الشافعي رحمه الله في مقدمة كتاب الرسالة: (الحمد لله الذي لا يُؤدّي شُكر نعمة من نِعَمِهِ؛ إلا بنعمة منه توجب على مؤدي ماضي نِعَمِهِ بأدائها نعمةً حادثةً، يجب عليه شكره بها)^(٢)، وهو عين المعنى المذكور في البيتين.

وقد ذكر بعض الشعراء هذا المعنى بقوله:

لك الحمدُ يا ربي على كل نعمة ومن جملة النعماءِ قولي: لك الحمدُ!

وقال تعالى ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] قال بعض المفسرين: الرزق هنا بمعنى الشكر^(٣). أي تجعلون شكركم تكذيباً.

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) الرسالة للشافعي (٧).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/١٥٣)، والمحرر الوجيز (٦/١١١).

ولا شك أن الشكر والتوفيق إليه من أعظم الأرزاق والنعم، وهما أيضا من أعظم ما تستزاد به النعم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

شرح أبيات: (سَلَّمَ الرَّجَاءُ)

قال ابن خزيمة وغيره: حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي (٢٠٤ هـ)^(١) في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله! كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله وارداً، ما أدري روعي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها.

ثم بكى، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضائق مذهبني جعلت رجائي دون عفوك سُلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرئته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منةً وتكرمُ

هذه الأبيات قالها الإمام الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، وهي مليئة -كما ترى- بمعاني الرجاء وحسن الظن بالله تعالى والطمع بنيل رحمته ومغفرته، ومن كان في حال ارتحال عن الدنيا وإقبال على الآخرة فتغليب الرجاء في فضل الله ورحمته أصلح لحاله، لا سيما إن كان من أهل الاستقامة والصلاح، وقد كان الشافعي رحمه الله إماماً زاهداً عابداً ورأساً في بث العلم ولزوم السنة والعمل بها،

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام، فقيه الدنيا، مجدد الدين، ناصر الحديث، مات أبوه إدريس شاباً، فنشأ محمد يتيماً في حجر أمه، أقبل على العربية والشرع فبرع في ذلك وتقدم، وحفظ شعر هذيل، ثم حجب إليه الفقه فساد أهل زمانه، وهو أول من جرد الكلام في أصول الفقه، ونصر طريق أهل الحديث، وثبت حجية خبر الواحد، والكلام في ترجمته ينبغي أن يطول ولا يمل. انظر «مناقب الشافعي» للبيهقي. وقد كُتِبَتْ عنه دراسات معاصرة مفيدة منها «عبقريّة الشافعي» لمشاري الشثري.

لذا قال السفاريني بعد أن أورد هذه الآيات: (هذا حال السلف: رجاء بلا إهمال، وخوف بلا قنوط)^(١). وقال ابن القيم: (حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور)^(٢).

وقد كان الصالحون يستصلحون قلوبهم ويمنحونها ما يقوّمها من الرجاء أو الخوف، ومتى آنسوا منها انفلتاً لجموها بلجام التخويف ونصوص الوعيد، فإن استقامت على الطريقة وأقبلت على الطاعة دلّقوا أبواب الرجاء والرحمة، وهكذا يعالجون نفوسهم بالحالين، فهم لا يقنطون من رحمة الله، ولا يأمنون مكر الله. قال ابن تيمية: (والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسباباً يتوصلون بها إلى رفع الضرر عنهم، ولهذا قيل: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله)^(٣).

(١) غذاء الألباب (١/٤٦٦).

(٢) الداء والدواء (٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٤٩٢).

الفهرس

الصفحة	العنوان
٧	تمهيد
١٥	الفصل الأول: المختارات الشعرية
٤٩	الفصل الثاني: شرح المختارات
٥١	شرح بيتي: (وهو منطلق)
٥٣	شرح أبيات: (ذبيب الكُسالى)
٥٦	شرح أبيات: (صخرة الأسرار)
٥٨	شرح بيتي: (مقابر المحاسن)
٥٩	شرح أبيات: (فليتك تحلو)
٦٢	شرح أبيات: (الغلؤ ذريعة الانتقاص)
٦٤	شرح أبيات: (شقاء المحب)
٦٦	شرح بيتي: (استسهال البدايات)
٦٨	شرح أبيات: (سباع بشرية)
٧٠	شرح أبيات: (لذة السعي إلى الأمانى)
٧٢	شرح بيتي: (استبداد الشعور)

٧٤	شرح بيتي: (قبول المعاذير)
٧٥	شرح أبيات: (حزازت النفوس)
٧٦	شرح أبيات: (ربما أفسد التماذي)
٧٩	شرح أبيات: (وملّت سليمي)
٨٢	شرح بيتي: (الغياب الموجه)
٨٤	شرح أبيات: (زفرة والد)
٨٧	شرح أبيات: (فضيلة التغافل)
٨٩	شرح أبيات: (عند الشدائد تذهب الأحقاد)
٩١	شرح أبيات: (رُقية الحب)
٩٣	شرح أبيات: (إن الشجا يبعث الشجا)
٩٥	شرح أبيات: (فكشفه التمحيص)
٩٦	شرح أبيات: (فكأنها أحلام)
٩٨	شرح بيتي: (حصاد السنين)
١٠٠	شرح أبيات (أنفة العتاب)
١٠٣	شرح بيتي: (المناظر المتعبة)
١٠٥	شرح أبيات: (فليتق الله سائله)
١٠٦	شرح أبيات: (والمنايا رَصَدٌ)
١٠٨	شرح أبيات: (حنكته التجارب)
١٠٩	شرح أبيات: (وتقتلنا المنونُ بلا قتالٍ)
١١٢	شرح بيتي: (لَسْتُ الملوّم)
١١٤	شرح أبيات: (تزاحم الأضداد)
١١٧	شرح بيتي: (فيا حجر الشحد)

١١٨	شرح أبيات: (زُخْرُفُ الْقَوْل)
١٢٠	شرح بيتي: (فضل التآني)
١٢١	شرح بيتي: (عِرْضُ مَصُون)
١٢٣	شرح أبيات (عفو المقتدر)
١٢٤	شرح أبيات (الشَّرُّ يَدُوهُ صَغَارُهُ)
١٢٦	شرح أبيات (إِقْدَامٌ عَلَى بَصِيرَةٍ)
١٢٧	شرح أبيات (إحدى النوائب)
١٢٩	شرح بيتي (حظوظ)
١٣١	شرح أبيات (كنز الصبر)
١٣٣	شرح أبيات (مقالة السوء)
١٣٤	شرح أبيات (أَقْسَمُ جِسْمِي)
١٣٦	شرح أبيات (فصير آخره أَوْلاً)
١٣٧	شرح بيتي (عِلْمُ الْأَبَاعِرِ)
١٣٨	شرح بيتي (الحمق الجميل)
١٣٩	شرح بيتي (المنزل الخشن)
١٤٠	شرح أبيات (أحلام الكرى)
١٤١	شرح بيتي (الحب والأذى)
١٤٢	شرح بيتي (نعمة الأذى)
١٤٣	شرح أبيات (تَلَفَّتُ الْقَلْبَ)
١٤٥	شرح أبيات (من الحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ)
١٤٧	شرح بيتي (إعراض كريم)
١٤٨	شرح أبيات (همٌ منتشر)

١٤٩	شرح بيتي (لينُ العزّة)
١٥١	شرح أبيات (لولا بُنيّات...)
١٥٣	شرح أبيات (زجاجة بشرية)
١٥٥	شرح أبيات (قتل الأحرار)
١٥٦	شرح أبيات: (هوى الفؤاد)
١٥٨	شرح بيتي (مماطلة)
١٦٠	شرح أبيات (شيمتك الحياء)
١٦٢	شرح بيتي (لا أرى أحدا)
١٦٣	شرح بيتي (لم يستوف قط كريم)
١٦٥	شرح أبيات (نوم مشرد)
١٦٦	شرح أبيات (أطعتُ مطامعي)
١٦٧	شرح أبيات (قناة صليبة)
١٦٩	شرح أبيات (لزوم العصا)
١٧٠	شرح بيتي (خاتل يدنو لصيد)
١٧١	شرح أبيات (قذئ عينية)
١٧٣	شرح أبيات (منه شيطانُ)
١٧٤	شرح بيتي (صبر الراس)
١٧٥	شرح بيتي (إحدى يدي أصابتنى)
١٧٦	شرح أبيات (قومٌ سواء)
١٧٧	شرح أبيات (حجة اللثام)
١٧٩	شرح أبيات (سهل فيها إذا هو كانا)
١٨٠	شرح أبيات (رجال الحقائق)

- ١٨٢ شرح أبيات (حقيقة الفخر)
- ١٨٤ شرح أبيات (وربُّ الدار كاره)
- ١٨٦ شرح بيتي: (شكر يستوجب الشكر)
- ١٨٨ شرح أبيات: (سُلِّمَ الرَّجَاء)